

جميل جبر
دكتور في الآداب

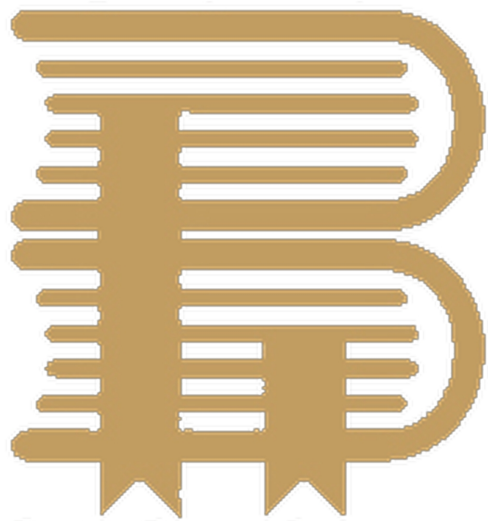
أمين الرجائي

سيرته وأدبه



محمود

المكتبة العصرية - صيدا - بيروت



جمیل جبر

دُکتور فی الادب

امین الرحمن الحکیم

سیرتہ وادب

منشورات المكتبة العصرية

صیدا - بیروت

صدر للمؤلف

روايات

١٩٤٨	دار الجمال	حنى
١٩٥٤	دار الروائع	بعد العاصفة
١٩٦١	دار الطليعة	قلق

سير ودراسات

١٩٤٩	دار الجمال	مي وجبران
١٩٥١	دار بيروت	مي في حياتها المضطربة
١٩٥٥	المطبعة الكاثوليكية	مي الادبية
١٩٥٧	دار الريحاني	جبران رجلا واديباً
١٩٥٧	دار المعارف (مصر)	طاغور
١٩٦٠	المطبعة الكاثوليكية	الجاحظ ومجتمع عصره
١٩٦١	دار الكتاب اللبناني	الجاحظ الاديب
١٩٦٣	دار الثقافة	الادب الاميركي الحديث
١٩٦٤	المطبعة الكاثوليكية	لبنان في روائع اقلامه

مخطوطات

مسرحية	حلم غرود
دراسة	نظرات في الادب الحديث
وجدانيات	خواطر من الصميم

إلى

كلوداً



توطئة

الريحاني الرجل والاديب ! وهل يصح في اي حال ان يفصل الرجل عن الاديب لدى رسول الحرف ؟ فلو خيرنا في اروع آثار الامين ، لاخترنا غير مترددين سفر حياته . فقد ملأ هذا الاديب وجوده حتي الطفاف كدّاً خيراً على صدق التجربات . فالكلمة التي قالها ومشى لم يشأها لفظة شفاه ولا تركيبة حروف . بل فيض نفس مثقلة استمر فيها وهج الدماء .

« حياتي اريدها ان تشع لا ان تفرقع » .

على هدي هذه الكلمة عاش الامين فكان ادبه اشعاع حياته ، وكانت حياته ذلك ينبوع السخي الذي غرف منه مادة قلمه . فلا الاشعاع خف على الايام ، ولا الماء التميز انتهى الى جفاف .

قلما صحت كلمة بوفون « الاسلوب هو الرجل » في اديب بقدر ما صحت في صاحب « قلب لبنان » . فذلك الانسان الحر الصريح المرح ،

العصبي المزاج ، جاء انشاؤه نزقاً ، سلساً ، فكهاً ، متماسك الحبك ، بعيداً عن كل غرابة وتعقيد . فالريحاني الواصل بنفسه وثقافته واختباره تجنب شعوزة في التعبير وغموضاً في الاداء يلجأ اليها إما مقلد يغلف الكلام طمساً لأصل ، وإما متأدب يوهم بالعمق حيث يصرخ الفراغ ، وإما متسول شهرة ينهج نهج البهلوان .

اما المضمون فما كان في نتاجه إلا عصارة اختبار . كان لهما وعرقاً . فالريحاني ما تغنى مرة بالحق والحرية والجمال ليتنكر لها جميعاً اذا زهق حق وديست حرية وتموس جمال ، بل سار ابدأ في طليعة الجهاد يكشف صدره للنقمة والغدر وصغارات البشر . فاذا به يطرد حدثاً ويضطهد شاباً وينفى كهلاً . وهو الى هذا يقول كلمته ويمشي مشية الرسل الاحرار نحو الهدف الاسمى .

« ان جنوناً في سبيل الحرية خير من العبودية . وان عزاً في الممات خير من حياة شاكية باكية تتوسد اليأس وتلتحف الخنوع » .
احب الريحاني لبنان فما قصر حبه على غزل بالارز والآس والبيلسان ، بل جسد العاطفة نضالا فحارب العثمانيين يوم هم في سدة المجد ، وثار على الانتداب فلا ساوم ولا هاود .

احب لبنان فما عبر عن حبه بمدح ينمق على خواء ، بل اعمل المبضع

بالفساد ونادى بالتساهل الديني والوحدة الوطنية والحرية والتقدم وكرامة
الانسان .

واحب الريحاني العرب فما تغنى بالنخيل والهرم ودجلة وعرار نجد، بل
مضى يطوف العالم العربي بلداً بلداً في اصعب اسباب التنقل واتصل
بالمملك والرؤساء والشعوب يعرف بعضها الى بعض ويمهد سبيل التفاهم
المؤسس على العلم والحضارة والخبر اليقين .

وآتت كلماته ثمارها حيثما زرعت لأنها تمخضت عن اخلاص اكيد
وانطلقت شرارة محرقة من قلب ابي كواه الجهل والتعصب والاستعباد .
الريحاني ، رجلا واديباً ، كان مناظلاً ملتزماً لا يعرف للازدواجية
صيغة ولا للمبالاة طريقاً على كثرة المتلونين الزاحفين على الجباه . لقد
رفع الكلمة الى مستوى القيمة وكرس حرمة الاديب في دنيا العرب ،
فاذا آثره اليوم افعال ايمان بالانسان الامثل وبلبنان سيد حديث ، وبالعالم
عربي متطور موحد الرأي يفرض على الكون حضوره .

امين الريحاني ، رجلا واديباً ، حقق فكرة الالتزام على ارفع مستوى .
لقد وعى ان الاديب الحق كائن اجتماعي كسائر البشر ، يمشي على توابهم ،
يتحدث بلغتهم ، يتنشق هواءهم ، يتألم تألمهم ، يفرح فرحهم ، يقلق قلقهم ،
وان عليه بالتالي ان ينطق بلسانهم فلا يراوغ ولا يتلهى بتوصيع القشور .

لقد أدرك الريحاني أن الأديب الأديب هو أولاً وآخرًا إنسان شفاف
الحساسية ، يقظ الخيال ، يعيش الوجود في صميمه ويستوحي اختبار
بإخلاص . لقد فهم أن الأديب الحي نداء للقارئ . فبقدر ما يبطل
الأديب أن يكون جزيرة ، بقدر ما يهبط من برجه العاجي إلى الأرض
فيتصل بقارة الحياة والإنسان بقدر ذاك يفعل نداؤه ، بقدر ذاك يشهد
على جيله ويؤدي رسالة .

رغم انقضاء حوالي ربع قرن على غروب الأمين ما زالت آثاره حية
تهزنا وما زال نداؤه الثوري فاعلا يردده الأحرار ترنيمة صباح فيذكرون
رسولا عاش رسالته ولم يفصل بين الأدب والحياة .

جميل جبر

بيت شباب في أول تموز سنة ١٩٦٤

الفصل الأول

أمين الرحى في
في حياته

حادثة صاحبة

على شفا واد مهيب ، عميق ، يغسل قدميه في نهر الكلب شتاء ،
وتكفل الطبيعة هامته ، في الربيع والصيف ، بأزهار اللزات^١ ، تقوم
قرية صغيرة وادعة ، بين اللوز والزيتون والتوت . هناك في الفريكة ،
(قضاء المتن في لبنان) ، ولد امين الريحاني في الرابع والعشرين من
تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٧٦ .

ابوه فارس بن انطون ، بن يوسف ، بن المطران باسيل البجاني^٢
تلميذ مدرسة رومه ، ينتهي نسبه الى اسرة سعادة في اهدن . نزح جدوده
الى بجة فانتسبوا اليها ، ثم غادرها فرع عبد الاحد واقام في الشاوية
- قرب الفريكة - حيث لقب بالريحاني ، لوفرة شجر الآس النابت في
جوار منزله .

كان ابو امين تاجر حرير مسوراً ، صاحب رأي ، كريم الخلق ،

١ مقاله (وادي الفريكة) .

٢ لم يكن محظوراً بعد ان يسام الكاهن المتزوج استغفاً

يجسد عقلية اللبناني المتوسط ، المحافظ على التقاليد ، الساهر على مصالحه وعياله ، القانع من الدنيا برضى ربه .

وام امين هي انيسة ، ابنة جفال طعمه البجاني ، شيخ القرنة الحمراء . كانت تصرف اوقاتها « صائئة » مصلية ، زاهدة ، متعبدة ، تقرع الصدر وتتردد الى الكنائس ^١ ، وتعنى بتدبير منزلها وتسهر على زوجها وابنائها شأنها في ذلك شأن القرويات البعيدات عن مرافق المدنية « الطازجة » . اما سبب انتقال العائلة الريحانية الى الفريكة فهو الحب ، على حد ما يروي لنا الامين . كان والده شريكا لحاله في معمل حرير ، بالفريكة ، فاضطر ان يقضي معظم ايامه في منزل خاله المذكور . وهناك اجتمع غير مرة بنسبته انيسة ، فكان بينها سلام فكلام فهايم ، ثم زواج كخاتمة الغرام . الا ان ثمة مشكلة جوهرية كان لا بد من حلها بادية ذي بدء الا وهي مركز الإقامة . فالعروس شئت ان تسكن القرنة الحمراء ، مسقط رأسها ، والعريس ابى ان يترك الشاوية ^٢ . وكادت تقوم القطيعة بينهما . . . لولا سهر العناية على المتيمين . وتقرر آخر الامر في مجلس عائلي ، ألا يقيم العروسان في الشاوية ولا في القرنة الحمراء ، بل فيما بين القريتين ، في الفريكة ^٣ .

١ من كلمة له في احدى حفلات تكريمه في مصر سنة ١٩٢٢

٢ على حد قول امين الريحاني

٣ قلب لبنان ٦٨

في هذه القرية الهادئة فتح امين عينيه على بيئة مارونية متدينة ، مغلقة على نفسها ، تعيش بخوف التركي ، وبخوف بعبع التطاول على التقاليد ، شعارها « جا كمك وربك » ومثلها الاعلى « رأس الحكمة مخافة الله » . وفتح اذنيه على الكرازة باجتنا ب الهراطقة والكفار ، وفتح ذهنه على جهل قائم يستثمره الاقطاعيون لتوكيز سيطرتهم على البسطاء .

عرف امين منذ الصغر ، بحيويته الجائشة وشدة المراس . فكان والداً مغامراً ، مولعاً بالحركة ، يطوف في الغابات ، ممزق الثياب ، حافياً ، تارة يتسلق الاشجار ساعياً وراء اعشاش الطيور ، وطوراً يطارد الفراشات بقبعته ، او يجمع الازاهير لتزين مذبح العذراء . ويعود الى البيت ، مهشم اليدين والرجلين والقنبا ز ، فتغسله امه وتغير ملابسه ، وهي تؤنبه مرة وتصفعه مرات ، فلا يرتدع .

اتفق مرة ان رأى الصبي بغلا مربوطاً بشجرة امام الباب ، فحدثه نفسه بالفروسية . دنا من البغل فك رسنه ثم صعد الى الحافة ، ومنها الى ظهره ، مشى البغل متباطئاً متحققاً امره ، فنتل الصغير الرسن ففهم ذو الاربعة المذكور وراح يحب ثم يعدو ، فتقلقل الفارس الصغير وهوى الى الارض . وبينما هو بين الارض وجلال البغل رآه اخذ الجيران وهرع

اليه ، فلمه وحمله ، دامى الرأس ، الى امه ١ .

وتعصف رياح الشتاء فتتربع العائلة وجيرانها حول الموقد في الليالي السود . ويجلس الامين على « شطيح » اغبر ينصت باهتمام الى نوادر جحا ترويها جدته المستقوية على الدهر ، او يصغي الى فصل من قصص «رواية بني هلال » يتلوها العم ابو مخايل مترنحاً وكأنه على صهوة اصيل .

وتستمر هذه الحال الى ساعة متأخرة من الليل والسامعون يهزجون ويقهقهون ، وامين يسمع معجباً فرحاً ، خلي البال .

لما بلغ الولد المدلل عامه السابع ، ارسله ابوه (وكان يومئذ يدير معملاً للحريز في بيت شباب) الى مدرسة الشدياق متى القائمة تحت الجوزة في الساحة السفلى من هذه الضيعة . وهناك على مقعد كسيح ، امام الكنيسة (السيدة الكبرى) كان يجلس الشدياق يلوح بقضيب في يمناه يتهدد الكسالى ، ويعبث بلحيته في اليسرى ، وهو يتهجأ ، متثائباً ، مقطوعاً من مقاطع « الغصن النضير » والاولاد حوله على الحصيرة يرددون قوله كالصدى ذاهلين ، يجمدون رموشهم قسراً .

لقاء هذا التعليم « النظيم » كان الشدياق متى يتلقى « سبتية » كل اسبوع . والسبتية ، كما لا يخفى ، رغيقان من الحبز كان يحملها الطالب

١ قلب لبنان ٣٤٩

٢ » » ٧٧

تحت ابطه ، كل سبت . ولما نكل امين بواجبه ذات يوم فلم يوف قسطه ،
طرد من المدرسة الشدياقية على غير عودة .

انتقل الطالب المتمرد على الشدياق والسبتية الى مدرسة علمانية ،
انشأها نعوم المكرزل ^١ في دير مار جرجس بجردق ، على كتف الشاوية ،
فدرس فيها مبادئ العربية والفرنسية والحساب طوال عامين . واذ لمس
المعلم في التلميذ حدة ذكاء ورغبة في الاقتباس اولاه اهتماماً خاصاً فحسد
عليه .

انقلاب

عبد ذاك مر قنصل فرنسة بقرية عين عار ، في طريقه من بيروت الى
مصيغه بكفيا ، فخرج التلاميذ بأثواب العيد صفّاً واحداً وراء استاذهم
نعوم يرحبون بالقنصل في ساحة البلدة ، بين مزارب العيين ومدخنة
الحرير . وكان المعلم قد نظم في مدح القنصل ودولته قصيدة رنانة واختار
أميناً لالقاءها .

لقى الفتى الجريء خطاب المعلم بلهجة اعجبت القنصل ، فخصه هذا
بعطفه ووعد به بأن يستصحبه في آخر الصيف الى بلاده ليكمل علومه فيها .
الا ان الام ابت فراق ابنها البكر فانطوى المشروع الى الابد .

١ مؤسس جريدة « الهدى » في نيويورك

ضرب الغرور في رأس امين نتيجة استمراره في التفوق فتقاعس وصار
مشاكساً مشاغباً . فعاقبه المعلم عقاباً قاسياً . ضربه على رؤوس انامله
مجموعاً بعضها الى بعض عشر ضربات شديداً بالمسطرة ^١ . فصمم
الطالب المتكبر على ان ينتقم من استاذة انتقاماً شنيعاً ، وراح يتحين
الظروف .

وحانت له الفرصة يوم دعاه الى لوحة التمرين السوداء قائلاً له : خذ
الطبشورة واكتب . فوقف امام اللوح ، والطبشورة بيده ينتظر الاملاء
قال : اكتب - الحمار ، فكتب : الحمار . فقال اكتب : امين ، فكتب
نعوم . فضحك التلاميذ وهلّلوا . ولكن المعلم استشاط غيظاً وعاقب
الصبي المتمرد عقاباً لم ينسه كل حياته .

اقفلت المدرسة بعد حين فاضطر امين ان يدرس على نفسه . كان
يتأبط كتابه ويمضي الى الوادي فيدرس في هدأة الطبيعة حتى الغروب ،
ثم يرجع الى البيت ليسهر على نور السراج متعظاً بقول ابيه « الدارس
غلب الفارس » ولكم نهته امه عن اكبابه المرهق على المطالعة مخوف ان
يضعف بصره . ولكن انفته الفطرية ابت عليه الا ان يسير في الطبيعة
او يموت .

١ قلب لينان ٦٦

إلى ارض كولومبوس

قد يكون حب المغامرة وركوب الاسفار من طبيعة اللبناني . انه قلق في بلاده يضيق محيطها عن طموحه فيولي وجهه شطر المهجر تتهياً له فيه اسباب التقدم فلا يعبأ بالمصاعب .

فكر امين في شؤون غده فحار بما يشتغل . أيتجر بالحرير مع ابيه ، وتجارة الحرير في كساد ؟ ام ينصرف الى الزراعة ويقنع بخبزه اليومي شأنه شأن العامة من ابناء قومه ؟ بل لماذا لا يهجر الوادي الى اميركة مع عمه عبده المزمع على الرحيل ! لكم اثرى اللبنانيون ولمع اسمهم في ذلك القطر الفسيح ! .

فكرة راودته عن نفسه فتدبرها ملياً ، وراح يراجع ما تيسر له من تاريخ وجغرافية مستطلعاً احوال اميركة التي لم يكن يعرف عنها غير ما رآه في « صندوق الفرجة » ليلة عيد مار مارون .

وشقت الفكرة طريقها البعيد في ذهنه ، على الايام ، رغم مرارة الانفصال عن الاهل والواذي ، واملت عليه العزم النهائي على الرحيل . فأبجر الفتى وعمه ومعلمه نعووم الى الولايات المتحدة يشبعون فيها نهمهم الى الثروة والمجد .

بعد شهرين بين الماء والسماء افاق امين كمن في غيبوبة : هذه هي

مدينة الغرائب والعجائب ! دورها تنطح السحاب وألوف من المداخن
تنفث في وجه السماء روحها الغازي . آلات وسرعة واحجام ودواليب ،
وأنواع من البشر من كل بلد وجنس ، وسعي الى الثروة لا يهدأ ولا يمل .
مظاهر ادهشت ابن الفريكة ، الغريب الساذج ، واشعرته ان في العالم
غير الشدياق متى وام مخايل وعفيفة و « الكرخانة » والعنزة الكحلاء .
في نيويورك ، ادخل عبده الريحاني ابن اخيه مدرسة راهبات المحبة ،
في حي نيويورك ، ليتعلم الانكليزية فيساعده في العمل التجاري . فلم
تنقض السنة حتى وصل ابو امين ، فتروك الطالب مدرسته ليعمل كاتباً في
محله .

كان يرد على الرسائل ، وينظم الحسابات بسرعة ودقة ليوفر شيئاً من
الوقت يصرفه في قراءة بعض المنتخبات المفسرة من اعلام الادب الفرنسي
والانكليزي ، وكان قد بدأ يتذوقها في المدرسة . حتى اذا اعياه الجهد
العقلي المستمر توجه الى النهر ، واختبأ في منعطفاته يصيد السراطين
فيبتاع بثمنها الكتب الانكليزية القرية المنال .

كان اهله عهد ذاك ، يقيمون في قبو مظلم ، تحت مستوى شارع
واشنطن ، تغمره مياه المطر في الشتاء فينتشلها بالدلو ولا ينفك كذلك
حتى تنهك قواه ، فينام وهو يرتجف ، وفي صدره نقمة متأججة على

« المتكئين على وسائد الريش المتسربلين بالحز والحزير » .

نما ولع الامين بالدروس والمطالعة نمواً مستمراً فقرأ في جملة ما قرأ بعض آثار فولتير وروسو وبيرون ، ورغب في اقتفاء خطى هؤلاء الاعلام في غده ، وقد وجد في كتاباتهم صدى لما يسمو اليه من فعالية وانطلاق . بيد انه كان تعساً معدماً لا ينتهي من معالجة الارقام نهائياً حتى ينصرف الى الدرس ليلاً والى انتشار مياه المطر ليجفف مأواه .

خطر له ان يخرج على هذا الواقع الخائق ، ان يتحرر منه ، فجعل يتعرف الى شبان الحي . وفي مزاحهم ومسامراتهم نسي نفسه حيناً ، فعقبت الخطوة الاولى خطوة ثانية ثم ثالثة ، فاذا بالشاب المنكمش على ذاته يرود الملاهي ، يسكر ويطرب ، ويحاول تخدير شعوره الباطني ليذهل عن ضائقة معنوية ومادية استقوت عليه .

شروء

تفتحت عيون الاهل على الولد الطائش فحنق ابوه عليه وهدده بالطرد اذا استرسل في مجونه او جاوزت سهراته الساعة العاشرة . كان يمتعض في قرارته ، ويتألم كلما انطوى على نفسه . لكنه كان اعجز من ان يقاوم طغيان البيئة والعادة ، فاستسلم مرة ، وتذمر مرات .

واتفق مرة ان عاد من احدى سهراته بعد انتصاف الليل ، فطرق باب

المنزل ، ثم عاود ، لكنه لم يسمع غير جواب ابيه الثائر : « ارجع من حيث اتيت » . فانقبض وجعل يصغي الى رجاء امه تلتمس له العفو منه حتى فتح الوالد الصارم الباب ، آخر الامر ، واذن له ان يبيت تلك الليلة على ان يرحل عند الصباح .

قضى امين ليلته فريسة الكتابة لا يهدأ روعه ولا يستقر على رأي . فاستعرض ماضيه يوماً فيوماً وفكر في عمل مستقل يناسب ذوقه ، ويؤمن له الرغبة .

في فترة اليأس هذه خطرت له فكرة التمثل المسرحي ، وكانت رواجه مشجعاً . فقتل الفكرة تأملاً وتحليلاً . ولما بزغ الفجر حمل حقيبته وقصد خاشعاً الى هنري دجويت ، الممثل المعروف الذي تحدثت المجالس يومذاك ببراعة فنه .

وصل الى دار الممثل . عرفه بنفسه طالباً ان يلتحق بجوقته السيارة كمتدرج . فقدم له هذا امتحاناً عسيراً ، نجح فيه . واذا هو في عامه السابع عشر يجوب انحاء الولايات المتحدة ويتوقع شهرة سريعة تثار له من قدر ما انفق يعبت به .

كانت باكورة اعماله تلك اشتراكه في تمثيل مسرحيتي « هملت » و« ريكاردوس الثالث » لشكسبير . فأبدى مرونة في الاقتباس ، ودقة

١ اشترك في التمثيل مع روز اتنغ ، ووليم اون ، وتوماس كولمن .

في الملاحظة ، اكتسبته اعجاب زملائه ، واكتسبته خصوصاً قدرة على الاقتداء وبراعة في ادراك التفاصيل لازمته فسحة العمر . الا ان جيبه ما فتئت خاوية اكثر من ذي قبل .

في هذه الفترة الجائرة كتب الى ابيه يطلعه على ما اصاب من نجاح معنوي قال : « الشركة التي انا فيها اشتغلت ثلاثة اسابيع ربحت خلالها ثلاثة آلاف ريال ، نصفها لأصحاب العمل والنصف الباقي لأصحاب التياترو . وشغل التياترو مثل شغل البورصة يخسر فيه الانسان دراهمه او يربح قدرها برمشة عين » .

وانتقل من ثم الى نقطة حساسة اكثر ، فأعلنه امرأ ارهق ضميره ، وهو انه لما عزم على الاشتراك بالفرقة التمثيلية طلب رئيسه اليه مئة دولار كاسهام بالنفقات . ولما لم يتوفر له هذا المبلغ ، لا كله ولا بعضه ، احتال على والده ، الطيب القلب ، فجعل بين الحوالات المصرفية على مكتبه برسم العملاء ، حوالة بخمسين دولاراً لأمره هو . فنجحت الحيلة وطار « الممثل » البارع بخمسين دولاراً الى رئيس الفرقة . لكن هذا رفض نصف المبلغ ، فعاود امين الكرة ، على بساطة ابيه ، ودفع ما عليه نقداً وعداً واطمأن .

غير ان الشهرة التي تخيلها امين دانية القطاف ما كانت إلا ظلاماً مبث

ان تقلص ، فتحمل خيبة الاخفاق الاول وما اورث من حموضة ولم ينثن
فالصبر مفتاح الفرج ... الا ان فرجه لم يفتحه الصبر على طوله . وزاد في
البلية استياء والده من الحيلة التي انطلت عليه ، فثار ثورة اعنف على
الولد العاق .

في بيئة الممثلين ، العابثة المحمومة ، تأصل المجنون في الامين تأصلا
غلب على ارادته الطرية . فصار يعايش الحليعات ويعب من عطرهن
السام على غير ارتواء . لكنه مع هذا كان يرامل امه ويخبرها بتنقلاته
وانتصاراته استدراراً لبعض نقود كانت ترسلها اليه خفية عن ابيه ، وهي
تلح عليه بالرجوع الى الحظيرة .

وانتقلت فرقة دجويت من خيبة الى خيبة حتى كانت نهاية المطاف
في كانسس سيتي ، غربي الولايات المتحدة ، حيث مثلت رواية « بندكت
ارنولد » القائد الحائن الشهير في حرب الاستقلال الاميركي ، فأفلست ،
واضطر « الابن الشاطر » ان يرجع الى ابيه نادماً مسترحماً ، وقد عول
على ان يمجّد ماضيه وينظم حياته على اسس جديدة مشمرة كما عول على
درس الحقوق في اوقات الفراغ .

الحبيب الاول

في الحي الذي سكنه امين اقامت حسناء رشيقة ، غضة الصبا ، قدمت

حديثاً من غرزوز (لبنان) . تعرف اليها مصادفة فانفتح قلبه لها . صار يجالسها سويعات « فردوسية » وهو مشدوه ذاهل ، يستمع اليها ويتنشق انفاسها ولا يمل . كان يشعر بلذة التغريد في حديثها وبلذة التقييد في فمها الصامت ، وبلذة الكتابة حين تغمض وتفتح عينيها ، فبردت طرائفها جفاف عيشه وادخلت في صميمه مصل التفاؤل .

غير ان هذا الحب العذري العاصف ما كان ليحرم الامين بعض صداقات بريئة . فثمة جارة فتانة تعود رؤيتها كل شروق ما ادرك ان علاقته بها تجاوزت المؤلف الا يوم بعدت عنه ...

لما رحلت سأل نفسه ، لأول مرة ، هل احب حقاً تلك الجارة ؟ والغرزوزية ؟ كيف يتسع قلبه لاثنتين ؟ لا ، انه ما احبها . وكيف يحبها وهي متزوجة واكبر منه سناً الا كما يحب الطفل المريض امه . لم لا يزيح اذن عن صدره كابوساً ويعلنها ما يخالجه من شعور لا تشوبه جسدانية العشق حتى في الخيال :

« انا اراك في عين الروح كلما مررت من امام بيتكم القديم ، فهل نسيت جارك وصديقك ؟ هل لك ان توسعي له في قلبك النقي مكاناً ؟ نعم انا اعرف انك متزوجة ولك بعلم فاضل اعتبره كأي ، ولكن ألا يوجد في قلبك الواسع العميق زاوية اخرى » .

« لا تظني اني اعشقتك ، بل احبك فقط واستحسن جمالك ، ويلذني حديثك ، وتطربني نغمات صوتك ويرتاح قلبي لما يراه فيك من المزايا... تذكرني الماضي... انا لم اعد ادخن الاركيمة منذ سفرك . اتعرفين السبب ؟ انه بسيط فأنا لا احب الاركيمة ، بل ابغضها . ولكن اي شقي على وجه الارض يرفض ان يدخن من « النربيج » الذي خرجت حاملته من فمك ؟ » .

ويظهر انها لم تفصح له في قلبها الزاوية التي اراد ، فاختنق الحب المتلجلج ، وهو في قماطه . واغلق امين من ثم كل زوايا قلبه إلا عن الغرزوزية فملأها اعواماً حتى الطفاف .

« احببتك وانت صغيرة بعد . كنا نلعب معاً ونتخاصم ونتقابل ثم نتصالح ونتعائق . كنا نهب العالم وما فيه في سبيل هنية عذبة من تلك الهنسات التي قضينا ونحن نقطف زهور الاقحوان ونسأل اوراقها عن حظنا في الحياة .

« اني لا ازال اذكر يوم زلت بك القدم وانجرحت . لقد بكيت ليلذاك ، وبكيت ، وما استطعت ان انام فصليت لكي تشفي . واليوم ما زال حبي كما هو ، بل ازداد ضراماً مع السنين . اني اشعر بأني اتيت الى هذه الدنيا لاحبك واحبك وحدك .

اجل يا حبيبتى لقد صحننا ، يوم جئنا الحياة ، ما سيطر وسيطر على
كل حياتنا ١» .

وكتالت رسائله اليها وفيها من نقاوة الحس وصدق العاطفة ما يسمو
بالاعتراف المبذل الى مصاف الروعة . لقد حسب انه وجد فيها فردوسه
الارضى الذى كثيراً ما سعى اليه .

ارتداد

لكن الامين رغم هذا الحب المزدوج ، لم ينصرف عما عول عليه بعد
فشله في التمثيل المسرحي . لقد انقطع الى مدرسة ليلية يتهيأ لامتحان
الحقوق . حتى اذا حان جازه بنجاح (سنة ١٨٩٨) ودخل جامعة
نيويورك ، قوي الثقة بنفسه ، كبير الامل بعيش رغد .

غير ان الواقع ما لبث ان بدد اوهامه ، فاذا عالم القانون لا يختلف
جفافاً عن عالم الورد والفانورة الذى حاول التخلص منه ، فتملكته السويداء
وتأصلت فيه ، لا سيما وان حسناء الغرزوزية بعيدة لاتلون ايامه الراقبة ،
ولا تهدد فيه نزوات القلق .

في وحشائه تلك كان يلوذ بالقلم ويدون خواطره ويرسلها الى جريدة
«الهدى» مقالات صغيرة ، فيها نزق الشباب . لغتار كيكة لاتعرف للنحو

اصولا ولا للصرف صيغة . كثيراً ما اعياء التعبير بالعربية فاستعان
بانكليزيته . وفي المطبعة كان محررو تلك الجريدة يهذبون عبارته
ويصححون تراكيبها قدر المستطاع . . . ولكم شاقه الافصاح عهدئذ عما
تلجلج في صميمه ، في مؤلف مستقل ، فخانته امكاناته : « يروى عن بعض
الكتاب والشعراء انهم الفوا الكتب وهم احداث ، وانا قد بلغت الثانية
والعشرين ولم اكتب مجلداً » .

انه الكاتب المحموم يستيقظ في الريحاني فيحمله على انماء مواهبه العقلية
وعلى الافادة من وقته كله ويصرفه الى عالم داخلي اغنى واخصب من
العالم الذي بذل فيه حيوية الصبا .

وهكذا ارتدع امين عن طيشه المستحكم ونقم على ماض عقيم لم يورثه
الا المرارة ، وجعل يتأهب للعمل الجدي ليحقق ذلك الحلم الادبي البعيد
الذي تمكن منه وهو يطالع محركي عقول الاجيال . لقد نشأت فيه رغبة
ملحة الى التفتيش عن يشعر شعوره ويشاطره اساه عندما يرضيه العمل
الفكري ، فاختر نخبة من المهاجرين اللبنانيين والسوريين ، كان يتصل
بهم كلما عرض له امر فيتشاكرون فيما بينهم ما يعانونه من غربة في المحيط
الذي يعيشون فيه ، ويتعاونون على حل مشكلات يومهم وتهيئة
الغد .

اما شذوذ الشباب فلم يعد له شأن يذكر في توجيه حياته ، فقد روضه
لخدمة طموحه الفكري . فتحول ولعه بارتياح الاندية المشبوهة الى مجالسة
الادباء والفنانين ، يتذوق احاديثهم ويحاول انتهاج نهجهم . لكنه ، وهو
حديث نعمة في الحقل الثقافي ، كان يشعر بعجز صارخ عن مجاراة
الموهوبين منهم والمتمرسين ، فيئن كبرياؤه وتثور غزوة نفسه ، فيعمل
صامتاً على استكمال شخصيته ، لا يعبأ بمتابع الجهاد . وكان شعوره
بقصوره هذا اشد حافز له على التقدم .

كان يرجع ، عادة ، من متجره حوالي الساعة السادسة مساء فيكب
على المطالعة الجدية في وحدة مطلقة . كان يقرأ ، باللغة الانكليزية ،
شكسبير وبيرون وشيثاً من هوجو مترجماً . مال خصوصاً الى الكتب
الاصلاحية والعلمية والتاريخية واطحها « زمن البرهان » لتوماس باين ،
و « آثار الدول » لفولني ، و « ولدن » لثورو ، و « الحكايات » لفولتير ،
و « الثورة الفرنسية » لكارليل ، و « العقد الاجتماعي » لروسو ، و « النزاع
بين العلم والدين » لورابر . ومجموعة مقالات ومحاضرات في المذهب
الدرويني لتوماس هكسلي . وكان يدون ملاحظاته بصدهم على هوامش
الكتب ، وهي ملاحظات لا تخلو من دقة التنبه وعمق الفهم .

كانت حالة ابيه المالية آنذاك متقلقة ، فاضطر ان يبقى في المحل

القديم ، وقد ادخل عليه بعض تصليحات سطحية منعت تسرب الماء اليه لكنها ما صدت عنه الرطوبة . فتغلغل تأثيرها في رثته بعد ان اضعف بنيته الجهد الذهني المتواصل والسهر المفرط . فذبلت نضارة وجهه واخذت تخور حيويته . فأشار عليه الطبيب بالعودة الى لبنان ليستشفى في جوه الهاديء المبريء .

العودة الاولى

عاد الامين الى لبنان يائساً ، عليلاً ، فقير الحال ، بعد ان كان يحلم بالرجوع ثرياً حليفه الجاه . لقد اراد ان يجعل القدر مطية لاهلامه يسخره كيف شاء ، فجمع به هذا القدر الحرون واذاقه ، بالجفاء الشامت ، مرارة الخذلان .

وصل الى لبنان في اوائل صيف سنة ١٨٩٨ ، فأقام في بيت جدته في الشاوية - قرب الفريكة - يحب انفاس الوادي السليمة ، ويسر الى الطبيعة بآلام خيبته . وفي كنف تلك الراحة المنعشة استرد على الايام حيويته فتألات آمال امسه امام عينيه من جديد .

اتيح له ، وهو في بلاده ، ان يطلع على تأخرها الاجتماعي الفاضح . فساءه ركود مواطنيه وتأخرهم عن ركب التقدم ، بقدر ما امضه تشبثهم بالتقاليد المحجرة والتعصب الديني . ولا غرو ، فقد ترعرع في

موطن الحرية الشاملة والتقدم السريع ، ودرس على معلمي التساهل والتحرر ، فولد فيه التفاوت البارز بين البيئتين نقمة جاححة على الرجعية والحمول تمخضت عن ثورة في نفسه رام اعلانها في كتاباته . فكان لا بد له من التعمق في العربية ، لغة قومه ، ليحقق مبتغاه .

دخل المدرسة اللبنانية ، في قرنة شوان ، يعلم الانكليزية فيها ويتعلم العربية من قبيل المقايضة . وكان اول ما طالعه في لغة الضاد هناك « نهج البلاغة » و « اللزوميات » ثم « مقامات الهمداني » و « رسائل الخوارزمي » و « نفع الطيب » و « الاغاني » . لقد استوقفه خصوصاً ديوان المعري فدرسه باهتمام ، كأنما لاءمت مزاجه الفطري تلك النزعة الظاهرة لدى الشاعر الاعمى الى الشك والتمرد والاستقراء والزهد ، فكان يتأبط « اللزوميات » كل مساء ويتجه الى غابة تشرف على الساقية الفاصلة بين الشاوية وبيت شباب . وهناك ، على صخرة ملساء يظللها الصنوبر الوارف كان يجلس الفتى المتأمرک ، النحيل الجسم ، الانيق الهندام ، المسدل الشعر ، الحليق الشاربين ، وقد ارتدى قبعة مخملية عريضة الاطراف وحمل نظارتين مذهبتى الاطار ، يتكئ حيناً على ذراعه اليمنى وحيناً يرتمي على مرفقة مستديرة ، وكتابه يضطرب بين يديه .

اوحى اليه شغفه بذلك الديوان بأن يترجمه نظماً الى الانكليزية

فيعرف الغربيين بفيلسوف المعرفة ، كما عرفهم من قبل فيتزجيرالد بعمر الحيام ، فيكون حقاً صلة فعالة بين الشرق والغرب .

وازدادت الفكرة اختاراً في ذهنه حتى نضجت . فلما شفي من علته ، خريف سنة ١٨٩٩ ، سافر الى اميركة حاملاً ابا العلاء ، محاولاً ان يطلقه من محبسه في ذلك الجو الفسيح .

ومع السفرة الثانية الى العالم الجديد تنتهي المرحلة الاولى من حياة صاحبنا ، مرحلة دراسة وسفر وخيبة وامل واختبار ، هام خلالها متردداً يفتش عن طريقه ولا يستقر . وهكذا نشأت شخصيته الادبية متأثرة بعوامل شتى . منها مطالعته المتنوعة التي فتحت امام عينيه آفاقاً رحبة ، ومنها تناقض البيثتين اللتين آوتاه ، من تعصب وتحجر وتقليد في بلاده الى تساهل ونهضة وانطلاق في العالم الجديد . ومنها البؤس الاجتماعي الصارخ الذي رآه بأم عينه في العالمين كليهما . بيد ان هذه العوامل ، وان فعالة الاثر ، ما كانت وحدها لتخلق الريحاني الاديبي لولا نزعة فطرية قوية فيه حدته على السعي وراء الحقيقة ، وعلى السمو بالكائن البشري نحو المثال ، لولا طموح جامع دفعه لأن يكتب اسمه بأحرف من نار في سفر التحرر .

والآن هاكه يقص حكاية نشأته بطريقة رومنطيقية درج عليها في

« تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه .
رشت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من
الجهل المتألى وما يمازجه من الخوف والاعجاب .

وغدوت بعد عشرين سنة في اميركة معجباً بنشاط الشعب الاميركي
وبجريته في الفكر والقول والعمل خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك
ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا .

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً
في مضمار الحياة ، صرفتني عن حقائق الوجود المادية وزينت لي في الفنون
الجميلة الحقائق المعنوية ... ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى
الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية ، واجتماعية ، ارقى
من الشعب الاميركي واحب الى من كان مثلي .

تلك هي الكأس التي شربها الامين في ضيافة الشعب الاميركي وهي
« كوكتيل » من الخوف والاعجاب والاختفاق والنشوة كما رأينا .
وتلك هي الآداب التي تتلمذ عليها : منها ما زاده ضعفاً وتردداً ، ومنها ما
جعله يتهيب عواقب الجهاد المادي ، ومنها ما زين له الحقائق المعنوية .
وتلك هي الاحلام التي دغدعت خياله الطري عهدئذ : شهرة خاطفة تجعله

محجة كل قارىء وثورة على البؤس الذي ذاق سمه يافعاً ، وتجديد ايجاد
فولتير والثورة الفرنسية في هذا الشرق المخدر بأفيون تقليده ، الراجع في
« نعيم » سلبيته .

في اميركة

وصل الريجاني الى الولايات المتحدة وهو على اشد ما يكون استياء من اوضاع بلاده التي كانت لا تزال مسرحاً للتنايد العنصري اطاره الجهل فتولدت في ذهنه فكرة اصلاح جذري لا تحققه إلا ثورة جارفة تشمل الروح والعقل والمادة كالثورة الفرنسية التي اخذت تسكره مبادئها . وكانت الحال في سوريا ولبنان قريبة الشبه عهده الك بالحال التي كانت عليها فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فأوحى اليه طموح الشباب ان يلعب دوراً حاسماً يقضي على الرجعية والحمول لتنشأ على انقاضها حضارة يفيض فيها دم حار خلاق . ولما كانت يعتقد ان سبب الانحطاط الاجتماعي الرئيسي ينحصر في التعصب والجهل عزم على محاربة هاتين الآفتين بكل ما اوتي من جرأة . وكان اول عمل اقدم عليه اسهامه في جمعية الشباب الماروني في نيويورك^١ .

١ كان رئيسها عهد ذاك المير يوسف ابو اللمع وكان بين اعضائها منة كري

رحيم وامين الغريب ونجيب دياب .

اعتادت هذه الجمعية ان تقيم حفلة سنوية ليلة عيد شفيعها تدعو^١ اليها
الجالية اللبنانية السورية على اختلاف مذاهبها فتشرب في اثنائها الانخاب
وتلقى الخطب ويعلو المهرج والمرج في غمرة التبخير والتزمير .

في تلك السنة ، سنة ١٩٠٠ ، طلب الى الريحاني ان يهيء خطبة افتتاحية
فلم يتردد لحظة في القبول فأعد كلمة نارية ليلفظها على هشيم العصبية المذهبية
فيقضي عليها دفعة واحدة . إلا ان للمتعصبين عيناً لا تنام فما ان علموا بما
يحاك بالخفاء حتى بادروا الى الوالد المتمسك بدينه يحثونه على تأديب فتاه
وكاد الخطيب ان يذعن لامر ابيه لولا اخوان له اوفياء اقنعوا الوالد
بأن المجد ينتظر ابنه ، فأقلع عن الوعيد .

وقف امين ، وهو يتهيب الموقف ، يلقي خطبته الخطيرة ، فما ان
استهلها وبين خطوطها الكبرى ثم وصل الى قوله « فلتجتمعنا الوطنية إذا
فرقنا الدين . التساهل هو اساس التمدن الحديث ، واحجز زاوية الجامعة
المدنية — التساهل اوجد الترقى والتقدم في كل فروع العلم والدين والفلسفة
— التساهل ايد سلطة الضمير ، حتى علا الهتاف والتصفيق ، فمسح العرق
عن جبينه ومضى يبعث سماً صرفاً في معرض التنديد بالتعصب الديني استساغه
بعضهم ، وشذبه بعضهم ، ووقف منه الآخرون بين بين ، فحمت الفوضى

١ عيد مار مارون في شباط .

وسيطر الشغب . وفي حميا هذا المجمعان انبرى الحوري يوسف يزبك
يرد على الخطيب لاعناً مقررأ ، فتدخل المصلحون يحفظون الامن وانطلقت
الالسن تلهج بذكر الريحاني المحرر . فكان الاصطدام الاول بينه وبين
رجال الدين . وراحت جرثومة « المحالفة الثلاثية » تتغلغل في لا وعيه .
اما الخطاب بمجد ذاته ، فمحوره طعن حاد بالتعصب الديني ودعوة الى
احترام اديان الغير سعياً للتآخي في بنوة الوطن ، لأن لكل عقيدة انصارها
واعداؤها ، ولأن التسامح ضروري في القضايا التي لا يجمع عليها ، ومنها
الطقوس الدينية . لهجته جريئة غلب عليها طابع الهوس ، هوس الشباب
المشبع بروح فولتير والانسكلوبوديين الطامع الى فرض مشيئته .

بعد انقضاء سنة على القاء ذلك الخطاب الناري نشرته جريدة « الهدى »
فكان وقعها بليغاً في اوساط المغتربين ، تناولته صحفهم بالثناء على نبذ
التعصب شرط ان لا يؤدي الى فتور العقيدة ولا الى محاربة الدين .
فقويت ثقة الامين بنفسه وازدادت رغبته في اداء رسالة التحرر . لكن
هذه لا تؤدي بالكلام وحسب ، انها تحتاج الى جهاز منظم والى المال
عصب الجهاد . فمضى امين يواصل عمله التجاري بعزيمة امضى ، ليدخر المادة
اللازمة لتحقيق اهدافه .

كان يومئذ لا يروعه شيء في الحياة غير الحق والجود . وكان يعتز

بالقلم والكتاب ويبشر بيوم النهضة في البلدان العربية . وكان شبلى دموس وعيسى الخوري رفيقيه في غزوة المكتبات الانكليزية فتغذوا بالغذاء الواحد وجعلوا « انغرمول وتوم باين وروسو وفولتير من حواضر البيت على الدوام » .

« في تلك الايام كان شبلى دموس يصدر جريدة اسبوعية اسمها « الاصلاح » وجهزها بالمدافع الرشاشة يطلقها على معاقل بني عثمان^١ وكان اهم ما يربط الامين بشبلى دموس وذلك المدفعي الآخر عيسى الخوري حبهم المشترك للثورة الفرنسية واعجابهم بمبادئها ورجالها وبحروبها وبكل ما يتعلق بها . ولقد قام بينهم شيء من التنافس في الاحاطة بالموضوع فيقول شبلى ويبيده تاريخ الجيرونديين مثلاً هل طالعت هذا الكتاب يا امين ، فيسبقه عيسى اليه ثم يجيبه بعد ايام وقد ملأ هوامشه بحواش كثيرة . وبعد هذا يجري نقاش في المتن والحواشي ولا يبقى من الكتاب غير الجلد والخطأ في اسم المؤلف الذي يجب ان يكون واحداً منهم « الثلاثة الائمة » .

ويعلق امين على هذه الوقائع بأسلوبه الفكاهي فيقول : ان علمنا

بالثورة الفرنسية كان منقطع النظر في العالم العربي في تلك الايام ،
و كنت مع ذلك اختصاصي بحياة روبسيير ، فكتبت لجريدة شبل سلسلة
مقالات في زعيم الثورة المعلوم ، فأطلق اسمه علي . وبما ان صاحب
« الاصلاح » كان عنيفاً في حملاته على الظالمين اسميناه « مارا » وكان
صديقنا ورفيقنا جميل معلوف يقول ضاحكاً : لست بخطيب لتدعوني
دانتون فأشركناه وعيسى في الاسم فتجسم ثالث الثورة ، فينا نحن
الاربعة ١ .

كانوا يجتمعون مرة كل اسبوع في نزل فرنسي في الشارع الثامن
والعشرين فيقضون ساعات في المناقشات السياسية والادبية والاصلاحية
وكل منهم متيقن ان اجل الاتراك في بلادهم سينقضي في غد قريب ، وان
الحكومة العربية المستقلة ستأسس على اركان الحرية والاخاء والمساواة
من صنعهم ووحيمهم .

*

في شارع برودواي ، حيث يزدحم بائعو الخضار وصبيان الازقة
وتكثر المناظر القذرة والنارجيلات وطاولات النرد والشوارب السود^٢
كان يجلس امين وراء حاجز خشبي قرب طاولة ضيقة عرجاء يضع

١ وجوه شرقية وغربية

٢ عن اليزايت مككلم

منهجاً لحياته المقبلة ، لا يبالي رضي الزبائن ام غضبوا . لقد احب
فالسّاف اكثر من جميع الرجال السمان الذين كانوا يباحثونه في التجارة
والاعمال .

تألم الفنان الناشئ من واقعة التافه فعزم على التخلص منه كيفما
اقتضى الامر . فراح يدرس اصول الموسيقى والتصوير متناسياً في اجوائها
مرارة عيشه . لكن وقته الضيق فرض عليه ان يقطع علاقته بالمجتمع
وينطوي على نفسه في وحدة النساك . فما ان سافرت والدته الى لبنان
حتى وضع لنفسه منهجاً صارماً لحصه بما يلي :

« انا الآن تاجر او بالحري مدير لاشغال والدي اثناء تغيبه غير اني
اعود الى البيت الساعة الخامسة وادرس ما استطعت من ذاك الوقت الى
منتصف الليل . احياناً يأخذني النعس فأطلب النوم في غير وقته فأضطرب
ان استخدم الوسائط الفعالة المنبهة لتبقيني نشيطاً وصبوراً . ومن هذه
الوسائط جربت القهوة ثم الشاي ثم التدخين مع الحشيش ثم سلكت
مسلك ابن سينا واخذت قليلاً من الحُمرة (الوسكي) كل ليلة . غير ان
هذه الاشياء اضرّت بي اخيراً واثرت في اعصابي فصرت سريع التهيج
وكثير الزعل و كنت اذا وبخت احدي شقيقاتي او اخي وجاوبوني
استشيط غضباً ، وبعد مدة تأملت في حالتي هذه وعرفت سبب تصرفي

فانقطعت عن هذه المنبهات واعتضت عنها بشرطة مبلولة في الماء اتعصب بها في الليل حينما اكون مشتغلاً فتبقيني واعياً ونشطاً .

« ... افكر في امور كثيرة واعزم على تأليف الكتب وكتابة الرسائل . ولكن لحد الآن لم اتم منها شيئاً . نعم يجب ان اثبت على عزمي . قد انتهيت مؤخراً من « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين البغل والحصان والحمار » ولكن سوف لا اطبعها قبل ان اصير قادراً على تصليح لغتها بنفسي ، فيجب علي اذن ان اتم الامور التالية في السنتين القادمتين من ١٩٠١ الى ١٩٠٣ .

(١) درس اللغة العربية : بحث المطالب ومطالعة ابن خلدون ومراجعة حضارة الاسلام ونهج البلاغة والحريري والدرر والغرر ومطالعة تاريخ مصر لزيدان وتكميل قراءة التوراة .

(٢) مراجعة علم الفيزيولوجيا وعلم الحيوان والنبات ودرس السيكلوجيا والجيولوجيا وقراءة هذه الكتب :

Darwin 's – Origin of specin and descent of man

Huxley 's . Man , s place in nature

Spencer 's . Data of Ethics

Allen 's . Lite of Darwin

Henri George ' Progress and Poverty

Voltaire ; Louis xiv

Victo Hugo , Morceaux choisis 1

وحاول امين ان يطبق هذا البرنامج بانتظام وثبات لا يتوانى ولا
يسأم استمرار الجهد .

لكن هذا المنهج الدراسي لم يكن ليغني الاديب الصغير عن التعبير .
فلكم ألحت به حاجة الى الافصاح عما يجول في ذهنه فكتب كيفما اتفق
له ، بالانكليزية والعربية ، متكلا على صديقه عيسى الخوري في تصحيح
عبارته ٢ .

*

ما سلم الريحاني قط بنظرية كبلانغ « الشرق شرق والغرب غرب ولن
يجتمعا » بل اعتقد ان هذا القول قد يصح في المظاهر السطحية فقط .
وحاول هو ان يدحضه بطريقة عملية فيجعل من نفسه همزة وصل بين
القطبين ينقل الى الغربيين روحانية الشرق والى الشرقيين تقدمية الغرب
فكان اول عمل اتاه في هذا الحقل نبذة كتبها عن تاريخ الثورة الفرنسية

١ من مذكرات امين الريحاني في ١١ تموز سنة ١٩٠١ التي نشرها اخوه البروت
في كتابه « امين الريحاني »

٢ كان يبعث ببعض مقالاته للنشر فترد اليه مع الشكر فيتألم ويشور ولا يئأس

تناولت اسباب نشوبها وخصائص محركها ولا سيما فولتير وروسو وروبسبير ثم تطرقت الى نتائجها المعنوية . وقد ذيل هذا الكتيب بنقد لاذع لتوماس كارليل في كتابه عن تاريخ هذه الثورة اخذ عليه استرساله مع العاطفة وحكمه على الحوادث بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى الظروف التي نشأت عنها ، ورأى هذا المؤلف اقرب الى مجموعة قصائد مدح وفخر وهجاء ورثاء منه الى التاريخ الصحيح . وقد عزا الشطط الى مزاج الكاتب العصبي اسير السويداء والتخمة الذي يتجلى اثره في التهم المقتدع والازدراء السام .

نشرت « الهدى » هذا البحث سنة ١٩٠٢ قلم تروج سوقه كما شاء الناشر والمؤلف ان تروج ، ولا غرابة فان ما كتب في هذا الباب لا يحصى ، ناهيك بأن المؤلف كان لا يزال مجهولاً في اكثر الاوساط القارئة . على ان اميناً اظهر في باكورته تلك لباقة في التعليل وتفهم الواقع لا بأس بهما . لكنه اغفل نقاطاً جوهرية في معرض تحليله . فهو مثلاً اذا يتحدث عن بواعث هذه الثورة الكبرى لا يذكر منها الا القرينة المباشرة وهي ، في عرفه ، خدمة الدين والنساء والاشراف . اما اثر القومية المستيقظة ، واما هرم العهد القديم فلا يعيرهما اهتماماً ، فضلاً عن انه عجز احياناً عن ضبط شعوره وتجريد نقده من التأثيرات العاطفية فوقع في الخطأ الذي عابه على

كارليل اي انه كان في غير فصل من فصول الكتاب خطيباً شاعراً
أكثر منه مؤرخاً .

ما كانت صدمة الكساد الذي لقيته الباكورة الرجائية لتثني صاحبها
عن السير في طريقه فمضى يكتب « المحالفة الثلاثية » في جو داخلي عابق
بالنقمة والامتعاض . وفي ذلك العهد اتاحت له ظروف حياته ان يعايش
العمال الكادحين ويشعر شعورهم ويتألم معهم . رأهم في المناجم تحت
الارض يتعرضون لأفطع الميتات ، وفي العنابر يصلون الليل والنهار
ويرهقون ذواتهم ، ورأى صغارهم يهجعون جوعاً على الطرق ، فتقرزت
نفسه وثار الانسان فيه فانبهرى يكتب ناهجاً تهج ولیم غاريسون ، مصوراً
شقاءهم بأسلوب حي مؤثر ، مطالباً بانصافهم السريع ومندهداً بتفاوت
الطبقات والاجناس وظلم المحتكرين وآفات التمدن « المؤسس على الطمع
وحب المال والاستئثار » .

انه تلميذ الثورة الفرنسية البار يدافع عن مبادئها ، بقلبه وقلمه
وروحه ، وقد رآها في محيطه كلمات فارغة ترددها اللسان ولا تختلج
بها النفوس .

المخالفة الثلاثية

دع التفلسف يا امين ! ولم يعمل مشر يطعمك خبزاً . فانك لم

تهجر بلادك لتكتب وتتأمل ، بل لتجمع ثروة تذكر . ان من يملك
دولاراً يساوي دولاراً ان علمت . ها كتابك الاول طبعته وانفقت
عليه ما وفرته بعرق الجبين ، وعلقت عليه ما شئت من آمال . ما كانت
نتيجته ؟ فهل انتصحت ؟

كثيراً ما سمع امين مثل هذه العظة « البليغة » من انسابه وجيرانه
والغيارى على مصيره وعمرانه ، فاكتأبت نفسه وفارت انفته . وكثيراً
ما شكا امره الى بعض خلانه الادباء فأسوه وشجعوه وذكروه بالعاقرة
الفاشلين في اول العمر .

واخاله عزاً كبوته هذه الى ضالة العمل الفردي في ذلك الوسط الشاسع
الاطراف فطلق برجه العاجي ثلاثاً ومضى يؤلف وبعض اخوانه المهاجرين
رابطة للتعاون في حقل الادب والاجتماع اطلقوا عليها اسم « ندوة
العشرة »^١ .

في تلك الغضون تمت « المحاكمة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين
الحصان والبغل والحمار » ، فنشرها سنة ١٩٠٣ مزينة ببعض صور هزلية
من صنعه وتلوينه .

١ كان رئيسها الامير يوسف ابو اللمع

والمخالفة الثلاثية ، محاورة رمزية « لاهوتية » تجري على ألسن
الحيوانات تبعاً لسنة ابن المقفع ولا فونتين . ابطالها حصان وبغل وحمار
وثور وثعلب خافوا انهيأرسلطانهم امام نهضة العلم والاختراع والتجديد ،
فعقدوا مؤتمراً ، ولا كالمؤتمرات ، بحثوا فيه مشكلاتهم وتبادلوا ملاحظاتهم ،
وشربوا الانخاب على شرف سيد الغاب . وقف الثعلب - المؤلف -
فيهم خطيباً ، فندد برجال الدين واعمالهم ونظرياتهم وعباداتهم فبغا وطغا
وتجبروا وازدري وأنذر وحذر ، فتألب الباكون عليه وكفروه وحاكموه
واعدموه واليك محضر التنفيذ :

الجلاد : ألا تريد ان تنكر اعتقادك ؟

الثعلب : اني اموت لأن الحيوانات نيام . اما انتم فستموتون لأنهم
سيكونون ايقاظاً .

فألقي الجلاد به في النار قائلاً : فلتكمل مشيئة الله .

في هذه الاثناء ظهر الاسد - المسيح - الذي شوه بعض الكهان اقواله
وخاطب الحصان والبغل والحمار بقوله : « اني اطلب رحمة ولا ضحية » .
وتلبدت السماء فانطلق بسيارته يسابق الريح . « اما الحصان والحمار
فذهبوا الى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين . وبينما هم سائرون ذات
يوم على طريق السكة الحديدية اذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار

والكهربائية والاختراعات وتمر عليهم جميعاً فسحقهم سحقاً وتطايرت رؤوسهم وبقايا اجسادهم في الجو وتشتت اعضاءهم المتقطعة على طريق التمدن الحديث .

ذلك هو موجز الآراء الريحانية في « المحالفة الثلاثية » ، سكبها في قالب هزئي لاذع لغته الى العامة اقرب منها الى الفصحى . ولربما تعتمد ذلك تعمداً لتكون قريبة المنال سريعة الانتقال .

حدث الامين الشاب القابل للتأثر ، الفردي الشخصية ، عوامل عدة على اتباع هذا المسلك الوعر . منها انتقامه من الحملة الشعواء التي شنّها الاكليروس عليه ومنها جزية لمعلميه الملحدون كفولتيروا ضرابه ومنهاهم حرون الى بلوغ الشهرة عن اي طريق . اما الافكار التي حاول ان يعبر عنها فمقتبس معظمها من ادب آخر القرن الخاضع لسيطرة رينان والعلومية وكارليل والاحادية ، اضيف الى ذلك جو البيئة الاميركية المؤمن بأعاجيب العلوم .

ثار رجال الاكليروس لدى ظهور المحالفة الثلاثية ، فنددوا بأقوال الريحاني دفاعاً عن الايمان المسيحي الجريح ، فانتصر له بعضهم واتخذ كلامه دستوراً وخرج عليه البعض الاخر فكفروه ووجه اليه من الذم ما يوجه الى المارقين . الا ان هذه الحملة على الكتاب ومعه عززت رواجه في

الاميركتين فطبع مرات واحرق مرات واصبح اسم الريحاني « الملحد »
على كل لسان .

الا ان صاحبنا رغم الشهرة السريعة التي دانت له ما انفق مضطرباً .
فها صديقان حميان له : امين الغريب وعباس البجاني ، يهاجمانه كتابة ،
ويدحضان آراءه فيحاول ان يبرر موقفه :

« كتبت قصة وليس كتاباً لاهوتياً ، لذلك لا اجادل في الدين .
الثعلب في كتابي هو انا . والحمار هو انا والحصان هو انا والبغل هو انا .
نعم انا اشخاص روايتي فيحق لي اذن ان افعل بهم ما اشاء . اذا حق
لنيرون ان يجلس على سطح قصره ويضرب في المنجيرة ساعة كان عسكره
يذبح المسيحيين فيحق لي ايضاً من اجل سروري فقط ان اضع في فم
اشخاص روايتي ما اريد من الكلام وانتقم منهم بعد ذلك . فانا سررت
في قتل الثعلب كما سررت في قتل الحمار والبغل والحصان . وللناقدين
الاتقياء ان يقولوا قولهم » .

الا ان نقمة الاكليروس والمهاجرين لم تكن لتوهن عزيمته وهو الذي
عاهد نفسه على ان « يقول كلمته ويمشي » بل جددت نشاطه في سبيل
ما اعتقده صواباً ، فنشر « المكاري والكاهن » سنة ١٩٠٤ يكيل فيه
على خصومه سخطه ويقبح اعمال المتاجرين باسم الدين المستخفين

بأقوال المسيح مصوراً بقلب قصصي فولتيري كيف يحولون المحبة الى
بغض والرحمة الى جور . وهذا الكتيب اقرب الى المقال منه الى الاقصوة .
اثر صبياني لا قيمة له كأنما ضاقت « المحالفة الثلاثية » عن تجسيم ثورته على
الاكليروس فأفرغ فيضه فيه .

انه نتاج الفتوة الجهيض لا يمثل شيئاً من اديب الغد .

*

صرف الريحاني وقتاً طويلاً في ترجمة الرباعيات ، يكتب وينقح
ويراجع ثم يعرض على اخصائه حتى رضي عنها اخيراً وطبعها سنة ١٩٠٣
فقبولت بالاعجاب والاستحسان في الاوساط الاميركية . قرظها عدد
كبير من جرائدها وفضلها على رباعيات الخيام المترجمة وقد بلغ شغف
الانسة الفنانة ليلي ستريكلند بعذوبة بعض مقطوعاتها ان وضعت لها لحناً
موسيقية مطابقة في كتيب خاص .

ولا بدع ان يوفق الريحاني في ترجمته تلك وقد كان يجيأ ابا العلاء وهو
يتوجه فلا ينقل صيغاً محنطة جافة من لغة الى لغة بل روح ذلك الشاعر

١ الاول في كتيبه « ذاك الكتاب » والاخر في نشرته « رد على المحالفة
الثلاثية » .

٢ من رسالة الى عباس البجاني في ١١ آب سنة ١٩٠٤

وقد تبلورت خلال روحه الريحانية، فأبرز تلك الشخصية القوية تقريباً كما هي في أسلوب انكليزي متين السبك مرن العبارة . وقد اختار هذه الاشعار من « لزوم ما لا يلزم » و « سقط الزند » و « ضوء السقط » ، وصدرها بمقدمة تناول فيها حياة المعري وتأثيره فقال : « اثار ابو العلاء حرب الاقلام على ما في عصره من شرور واباطيل فحمل على الخرافات والاحاديث الموضوعة ونادى بضرورة الخضوع لسلطان العقل والثورة على الاستبداد والظلم رافعاً حرية الضمير وسمو النفس فوق مطامع الحكام مبيناً معائب الرؤساء دنيا وديناً » . وبعد ان افاض في هذا الصدد قابل بينه وبين عمر الحيام فاعتبر الشاعر الفارسي تلميذاً لابن المعرة اخذ عنه معانيه كما اخذ فولتير معظم آرائه الحرة في الدين عن هوبس ولوك وبايل . والمعري في نظره لقريطيوس الاسلام وديوجنس العرب وفولتير المشرق .

اما الرباعيات المترجمة فقد بلغ عددها مئة وستاً وعشرين . بيتان في الاصل حولاً بتصرف الى اربعة انكليزية نورد احداها هنا على سبيل المثال :

ونار ان نفخت بها اضاءت	ولكن انت تنفخ في رماد
لقد اسمعت لو ناديت حياً	ولكن لا حياة لمن تنادي

Fan thou the fire then behold the light

Fan thou but ashes and bemoon by sight

Call thou the living and the will respond

But whom thou callest are as dead as Night

لكن هذه الترجمة ان حافظت على الفكرة كما رأيت فقد ابتعدت
عن الصورة ابتعاداً اقتضاه منطق العروض والقوافي وصعوبة النقل من
لغة شرقية الى لغة غربية . فترجمة الشعر شعراً تتطلب شيئاً من التضحية
اما في المبنى واما في المعنى واما في كليهما بعض الاحايين ^١ .

كما وطدت « المحالفة الثلاثية » شهرة الريحاني في الاوساط العربية في
الولايات المتحدة وطدت « اللزوميات » المترجمة شهرته في الاوساط
الناطقه بالانكليزية فأصبح بعض الصحف المعروفة ينشر له مثل « البوكن »
و « الفوروم » و « الهدى » و « مرآة الغرب » و « الاصلاح » فأيسرت
حاله قليلا وصار قادراً على التخلي عن التجارة ، لاسيما وقدمات ابوه .

في ذلك الزمان كان يقيم الامين تارة في نيويورك وطوراً في بروكلين
في طابق عال زينت جدرانها صور غامبتا ووبستروغلاستون . وكانت
يختلف الى المجتمعات البرجوازية والادبية التي قدرت فيه المحدث اللبق ،
الهاديء الاعصاب ، الذي يشترك في كل بحث وحوار فيبيدي رأيه في الازياء

والسينما والتمثيل ويقول كلمته في الفن والسياسة والعلوم على خفة روح
ولدغة نهكم .

من الاندية التي كان يتردد اليها « نادي الثريا » فما طال به الامر حتى
صار بين اعضائه فأحيوا له حفلة تكريمية ، توجوا رأسه ، في نهايتها ، باكليل
من الغار .

انها الاقدار الساخرة تضحك للامين بعد عبوسها الطويل فيومقها
حذراً متيقظاً باسماء .

ما كان النشاط العقلي المحموم ليصرف امين عن صديقه الغرزوزية ،
فقد كان على اتصال مستمر بها يقضي معها ساعات من صميم العمر وكتب
بوحيا غير قصيدة وجدانية . وكان آنذاك حنينه الى لبنان واهله يعصف
به ويستبد فيرسله شعراً خافقاً بغصة الغريب وشوقه الى معانقة امه
واختيه والتبرك بثلج صنين ونسيمات الصباح على حافة الوادي . فجمع
بعض هذا الشعر في ديوانه « المر والريحان » الذي جاء صورة حية عن
صباه الرومنطقي تكشف عن ثنايا نفسه المضطربة وقلبه الهائم .

إلا ان الاقدار التي بسمت له ساعة عادت تعبت به على غير رحمة .
لقد فجعته الغرزوزية وهو في حمى الهوى فأحرقت كبده . ذهبت
الى الامازون للتنزه فغرقت فيه ، فنقم الامين على الحياة ومن فيها وما

فيها واعتزل العالم حيناً حتى احس ان العزلة تخنق النفوس الجريجة فخرج عليها واخفى نغمته وراء بسمه شاحبة خوف شماته الخلان وعمد الى الشعر عزاء البائسين ، يحمله شكواه . لكنه ما لبث ان مزق هذا الشعر المائع بوحى فعل ارادي حازم ولم تنج منه الا قصيدة واحدة نثرية حفظها على سبيل التذكار عنوانها « نفحة من لؤلؤة » نشرها اولاً في جريدة « المنار » ثم نقحها واعاد نشرها في « الريحانيات »^١ وقد جاء فيها :

« يا ايتها الساكنة قعر ذاك النهر القصي .

يا ايتها الراقدة تحت تلك الامواج الغربية .

لا تجزعي ولا تخافي .

انت اميرة اللؤلؤ ، واللؤلؤ هناك يلاقيك مرحباً .

انت ملكة المرجان ، والمرجان يمجّدك منشداً

يا ايتها الزنبقة المدفونة في مياه الغربية ، ليست الغربية بعدك بعيدة

وليس القعر دائماً رمز السقوط والحزن والبلاء

انت في غرقك ترتفعين وفي هبوطك ترتقين

وقد كنت بعيدة عني فأدناك مني الموت فأصبحت حية في ذكر لا يموت »

١ صدرت في الطبعة الاخيرة من « هتاف الاودية » الذي تضمن كل ما في الريحانيات من شعر منشور

كان المصائب لا تأتي فرادى . مرضت سعدى اخت الامين
بعد موت ابيه وموت الحبيبة ، وساءت صحته وتوترت اعصابه فشم
العيش « بين شعب لا يعرف معنى السكينة والراحة ولا الجمال في بلاد
حركتها دائمة متواصلة ، بين قوم يأكلون ماشين ويقرأون آكلين
ويعدون النقود راكضين ، ويعبدون الاوثان قائلين قاعددين » وحول
وجهه الى مشرق الشمس ، ليقرب من جماله الشعري فينسى كروبه .
« اذا كانت اكتشافات العلم ونتائج تزايد الجسم نظافة وصحة وقوة
وسعادة فينبوع الجمال النفسي الساحر الذي لا ينضب معينه في الشرق
لا يزال يمنع النفس البشرية تلك الطمأنينة او التعزية التي تتوق دوماً
اليها » .

العودة الثانية

مر الامين بمصر في طريقه الى لبنان ، ف قضى فيها شتاء كاملاً زار في
اثنائه الحديوي عباس حلمي واتصل بأبرز الادباء والزعماء السياسيين
وباحثهم في احوال الشرق العربي الاجتماعية والسياسية والفكرية ووسائل
النهوض بها . ولما اطل الربيع رجع الى واديه ، الى « الصومعة » ليستأنف
عمله في وحدة النساك ، في غمرة الطبيعة المضياف . لقد شاقه ان ينطوي
على نفسه القلقة فيصغي الى انينها في هدأة الغاب بعد ان ارهقته المصائب

ودوخه عجيج الآلة وخيبه تكالب الناس .

غير انه حتى في الفريكة ، لم ينعم بالطمأنينة التي صبا اليها . لقد اشتدت دعاوة الاكليروس ضده منذ وصوله الى لبنان وكثرت عنه الاقاويل في اوساط الجبل : من زاعم انه قس بروتستاني يستهدف تقويض الكتلكة ، ومن قائل انه دهري ينكر وجود الخالق ، ومن معتقد انه مشعوذ مفسد ينبغي اضطهاده . وقد الف المتهيجون لجنة دفاع عن الفضيلة والايمان ، وراحوا يحتجون الى اسقف الابرشية ، ويطلبون مساعدته في استئصال شأفة الكفر من بينهم . الحرم ! يا سيدنا الحرم ! لا يؤدبه الا الحرم ! فاستجاب سيادته طلبهم ، واصدر حرماً « يمنع فيه امين بن فارس بن انطون الريحاني القاطن في الفريكة من قبول الاسرار الكنسية ومن شركة المؤمنين ومخالطتهم . او بالحري يمنع المؤمنين من مخالطته »^١ .

وقد كان في تلك الايام شديد التمسك ، بقواعد التنسك ، يؤثر الوحدة الكلية على مخالطة الناس ، فجاء الحرم في وقته ومحلّه ، فكتب الى الاسقف يشكره عليه ، والى اهل الفريكة يحضهم على طاعة الاسقف فيعملون بما يوجبه الحرم عليهم ويتركونه وشأنه .

١ قلب لبنان ص ٨٠

« استمرت هذه الحال بضعة اشهر ، والناس بين محبذ ومنكر ، وطائع وساخر ، فما نجم من الضرر ما يذكر ، والحمد لله ، لا على المحروم ولا على جيرانه المؤمنين . على ان المحروم ظل موضوع احاديثهم ردحاً من من الدهر ، وغدا كالثور الابلق ، يشار اليه بالبنان » .

اجل حرم امين نفسه عن الناس وعاش رهين قلمه و كتابه لا يترك صومعته ^١ إلا لينسل إلى الوادي ويجاور الأزهار والاطيار ، فينعشه اريج الزنبق والسوسن وتطربه زقزقة الحساسين وتؤنسه الحمام وهي تأكل من يده . لقد علمه صديقه المعري وثوروا ان يستجير بعزلة الطبيعة ساعة يرهقه البشر فتمده بجنانها المنعش وتبدد سأمه .

وقد ذكر الامين بالخير ذلك العهد فقال « سنة صفت فيها الحياة وازدهت . فانعكس في الروح نورها ، ونورت في النفس زهورها ، وردد القلب صدى اصوات الوادي واغاريد ^٢ . ولا غرو ألم يعد الى وطنه طالباً فيه راحة العقل والنفس والجسد هارباً من الحضارة ومتاعبها راغباً بالطبيعة وجمالها والتأمل ولذاته ! .

١ كان يزوره اصدقاؤه من بيروت ومن دمشق وبينهم جرجي سرسق وجرجي بازو والمستشرق الالماني ديمولين ومحمد كرد علي .

٢ القوميات الجزء الثاني ، ٦٨

جهاد قوي

صار للأمين مركز مرموق في لبنان وسورية بعد ان تقدمته الشهرة
الادبية اليها تغذوها نقمة رجال الدين وانصارهم . فاذا كانت لا بد من
عمل ايجابي يقوم به فالظروف سانحة ملائمة . لقد شرع الشرق ، الرافع
في خموله ، يفتح عينيه للنور . اليابان تسجل انتصاراً بارزاً على الروس في
موقعة موكدن ، وحزب تركيا الفتاة ينمو باطراد ويهدد المالكين
سعيداً بالزوال . وفي مصر ينفث محمد عبده ومصطفى كامل والمجددون
من تلامذة الافغاني الحرية الحقة في نفوس النابتة . وفي بيروت ودمشق
وبغداد والقدس احزاب سرية استقلالية تنتظم وتعمل بمجد واستمرار .
نار تحت الرماد تنتظر وقاداً يثيرها . فيها الى الواجب النضالي يا امين !
صوت دوى في اذن ضميره فلباه باندفاع واذا هو يكتب ويخطب ويوجه
ولا يمل .

« جرد نفسك ولو بضع ساعات عن اطمار الاجيال ، وتعال نحب معاً .
ومتى وصلت الى كعبة الحقيقة ، وانت في مئزر الحج ، تجد هناك اثوابك
الموروثة واثواباً اخرى جديدة الى جانبها فاما انك تعود الى ما كنت
عليه فتلبس ما الفته وتسير في سبيلك ، واما انك تعترض عنها بثوب

ليس فخياً ولكنه من الرقع والفتوق سليم .

هذا هو النداء الذي ارسله الامين عالياً جريئاً يدعو فيه بني قومه الى
الانعتاق من جهل اعمى شل تقدمهم والى السير نحو حضارة جديدة خصبة
قوامها الحرية الصحيحة والعلم والعدل .

ولما لم يكن في لبنان وسوريا ، في ذلك العهد ، وسط موجه دافع
يذر الافكار التقدمية في مواسمها ليحصدتها استقلالاً ، راح يجمع شمل
المتحررين من الادباء وكان على اتصال بهم من اميركة ، يرسمون خطة
نظامية موحدة لعملهم الانقاذي ويخلقون تياراً فكرياً لا تقف دونه
سدود الانهزاميين . وما هي ليلة وضحاها حتى اصبحت « الصومعة »
محجة المثقفين والمفكرين يؤمها باستمرار عشرات الادباء ولا سيما ، داود
مجايع ، قسطنطين يني ، جرجي باز ، بترو باولي ، بشارة الخوري
(الاخطل الصغير) اسكندر عازار ، مصطفى الغلاييني ، عبد الرحمن
سلام ، الياس خليل شديد ، فيلكس فارس ، محمد كرد علي وشبلي
الملاط . شباب عطش الى التحرر يلتف حول الريحاني ويعالج معه امور
الساعة وتطوراتها الممكنة في الجبل وبيروت وسائر الولايات ويتدارسون
الوسائل الفعالة لترويض الشعب على الجهاد وقد نشأ على الاستسلام لسنة

المجهود الاقل . وكانوا اذا تفرقوا مضوا يكتبون في صحفهم^١ ضاربين على وتر الكرامة الوطنية وحرية الانسان مجسمين ، بصورة نافرة الخطوط ذل العبودية وعواقب الجمول ، محرضين على التحرر الناجز في حقول المادة والذهن والروح .

انه انقلاب اجتماعي سياسي خطير يهيا وراء الستار ، باشراف الامين وانها الخطوة الاولى لمن منهج اصلاحي شامل نذر العمر في سبيل تحقيقه .

ناسك الفريكة

تعود امين البساطة الانيقة في حياته ، فكان يعيش على الطريقة الاميركية المريحة اللامبالية ، يكتب في العزلة ويطالع حتى يسأم وحشته فيقوم بنزهات طويلة تبلغ به احياناً زحلة او الشويقات او عاليه يرافقه فيها كلبه الصغير دوق جون . وفي هذه المدن كان يزور اصحابه ويبيت ليلته عندهم ليغود في الغداة الى الصومعة والقلم .

في رحلاته هذه كان يستلفت العامة ويثير فضولهم فيضربون في مسارح خيالهم ويستنبطون عنه الاقاويل . وكيف لا يبدو لهم غريباً في زيه ،

١ منها المنار ، والبرق ، والوطن ، ولسان الاتحاد والنصير .

مستهجنأ في شكله ، ذلك المتأمر ك الحليق الشاربين ، المصفف الشعر
ومسدوله ، على غرار اوسكار وايلد ، الذي يرتدي قبعة مخماية ، وبنطلون
وبالطو ابيضين يغطيها رداء اسود كجبة الكاهن ، فيتحدثون بأمره على
التنور والعين وفي باحات الكنائس ويضخمون الاساطير .

*

في ايام الشتاء ، عندما تتلبد السماء وتعربد الريح تقفر الفريكة
وينقطع عن الأمين اصحابه مرغمين وتتوب عنهم رسائل المودة يطلعونه
فيها على مجرى اعمالهم وتطور احوالهم فيشكون احياناً او يتألمون ،
فيجيبهم مؤنباً معاتباً مشجعاً عابثاً بالمجاملات :

« كن صبوراً ولا تيأس . الغم لا ينفع والسويداء اشد ضربة على
النفس ... ولا تنس ان تقرر الثقة بالنشاط والنشاط بالبشاشة .

« انا مثلك منيت بالسويداء وكاد يسومني اليأس في ماضي حياتي ،
و كنت احفظ مذكرة اكتب فيها صباح كل يوم شكواي واذرف على
صفحاتها دموعي ، ولكن ذلك قلما كان ينفعني لانني في تلك الايام لم
افعل شيئاً . وما تمكنت من العمل الا بعد ان مزقت مذكراتي
وامسكت نفسي عن الشكوى والتأمل » .

ذلك هو جوابه على شكوى صديقه قسطنطين بني السائم ، الخائر

العزيمة ، في غمرة احدى الازمات النفسية . انها عظة مستحبة ، لأنها خلو
من التبجح وصادرة من القلب الى القلب .

وكان اذا اتم برنامجہ العامي اليومي ، ينحدر الى الوادي يعب انقاسه
ويناجي الطبيعة التي علمه روسو ان يعود اليها كلما اعوزه العزاء البريء .
وهنا لك فوق مضيق نهر الكلب ، حيث سجل رعمسيس وسنحريب
واسرحدون انتصاراتهم خلل الدهور ، كان يقف خاشعاً متهيّباً امام رهبة
الغاب وعظمة التاريخ .

وفي صباح احد الايام التي تقف حائرة بين الحريف والشتاء لبي دعوة
الوادي . خرج من بيته بمعطف مشمع واخذ يقفز على الربي ويدب من
تحت الصخور حتى وصل الى قلب الغاب . لقد هبط على عادته ، لاترويحاً
لنفس ، بل ابتغاء الالهام والفائدة . . . فانحدر الى الوادي ووقف على
صخر يشرف على النهر وتأمل فعل العواصف والانواء ، فأحس بأن
روحه انفصلت عن جسمه وطارت فوق الاشجار البليّة وطارت فوق
الصخور الشهب في الصيف ، السود بعد الامطار . شعر آنذاك بأن روح
الوادي قد اتحدت به وان روحه قد اتحدت بالوادي . . . صعد قليلا
وتنشق هواء الاحراج فكادت نفسه تلقى صدى في حفيف الاوراق . . .
وتعرقل في الصخر فسمع صوت رفرقة العصافير واذا بسرب كبير من

السنونو يفر من امامه ففكر : « لو كان للطير ان يقرأ الافكار لما كان هذا السرب يفر الان من وجهي بل كان يجيئي مغرداً فأقبله ويقبلني ويسير بعدئذ كل منا في سبيله . ولكن اخواني البشر لم يعودوا الطير مثل هذا ، والسنونو لم يقرأ حتى اليوم شيئاً مما اكتبه . الى الان لا يعرفني وهل يلام على ذلك والانسان نفسه لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليه الانسان » .

... مرت عليه ساعة وهو ينشق طيب الازاهر ويفكر في الحشاشين والروحيين والبوذيين ، في اولئك الذين يسكرهم الافيون او الايمان فيرتفعون بأحلامهم الى ما وراء الطبيعة او ينحدرون الى ما تحتها ، فنهض وقد تحدرت اعصابه من ارج الاشجار الندية ونظر بعين البصيرة الى الافق من خلال الاغصان فتنسم من الغيوم المتراكمة فيه خيراً وقال في نفسه الى البيت يا ولد ! الى البيت ! ... عد الى عشك قبل ان تحاصر ك الرياح وترسل عليك السحب شآبيبها ، فقبل نصيحة نفسه وانزوى في مغارة صغيرة يتأمل حكمة الطبيعة ... والطبيعة لا تظلم بنيتها مهما اشتد غضبها .

وحاصره المطر في كهفه الصغير ساعة من الزمن فأخذ يتأمل اثناء ذلك ما كان في داخله من آثار المخلوقات التي سكنته قبله فرأى ان الحية

كانت قد دخله لتغير فيه ثوبها ، والشعلب ليأكل فرخته والضبع ليفترس فيها مائدته ... من له برفيق يشاطره ذلك المأوى الصغير المعتم البارد ، الجميل في فراشه ! انه لا ينكر جمال العزلة لكن لا بد له معها من رفيق يقول له من وقت الى آخر ان العزلة جميلة فقد تآقت نفسه ، وهو بالقرب من الطبيعة ، الى نفس بشرية تؤاخيها .

« السير في شوارع المدن الكبرى يذكر الانسان بالانسان واما السير في الوادي او الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم . الاول يدعو الى العمل والاخر الى التفكير والتأمل ... يمشي المتنزه في شارع من شوارع باريس او نيويورك فيدهشه ازدحام الناس وتنقبض نفسه من الضجيج ويتبلبل فكره بمראה وراء زجاج النوافذ الكبيرة من مصنوعات الانسان ومن التحف والعاديات . ويمشي ابن الطبيعة في الغاب بين الادغال وتحت الاشجار والادواح فتنعشه روائح الصنوبر ويسكره افقون الارض . فيخرج من بيت امه وهو شاعر بأنه يستحق ان تعامله الطبيعة معاملة احد اعضائها المتساوين امام الناموس الشامل الدائم الذي لا يبطل من اجل الاغنياء ولا يلغى من اجل الملوك والامراء »^١ .

١ الريجانيات ١ ص ٥٩

ولما انتهى من تطوافه الشعري الحلولي في وادي الفريكة . عاد الى صومعته وكتب مقاله الشهير عنه وارسله الى صديقيه صروف وغر في مصر فنشراه في « المقتطف » وبعثا اليه بخمس جنيهات اول كانت ريع دره عليه نتاج القلم العربي فدعا اصدقاءه الى فندق « لو كسمبرغ » في بيروت واقام لهم حفلة دعابة مرحة احياء لتلك البداية المغربية .

الخطيب

غير ان العزلة الرومنطيقية في احضان الطبيعة الرؤوم لم تدم طويلا للامين . فقد كان عليه ان يوجه الشعور القومي المستيقظ لدى الناشئة المثقفة الشاعرة بقصورها الحضاري فحوصر في معقله وقيل له : « هات بما عندك » فقال متواضعا : وماذا تبتغون من ناسك مفتون يتغزل بالعوسج والطيون ؟ ثم اعطاهم بما عنده فحمل على حصونهم الاجتماعية والسياسية والدينية . وحسب ان الحصون تتساقط الواحد بعد الآخر كأنها من كرتون واشعره الحاضرون بتصفيقهم انهم مسرورون بسقوطها وما صدقوا فيما اشغروه وما اصاب فيما حسب .

وكانت الخطبة الاولى في بيروت ، في جمعية شمس البر ، في كنيسة الاميركان ، في السنة الاخيرة من عهد عبد الحميد ، استهلها بمناجاة الشرق

منبت المعجزات ثم باطراء الثورة الفرنسية التي « اطلقت ضمير الانسان من قيود الخرافة السوداء ، وعقله من قيود السلطة الصماء ، وقلبه من قيود الطاعة العمياء » ، ثم اسهب في تحديد الحرية الروحية واطنّب وحلل وعلل ، فاذا الحرية الجوهرية الكاملة لا تسود ولا تنتشر الا اذا دعمها العلم والتحرر من التعصب والتقليد .

وتتالت من ثم خطبه في بيروت محشوة بالبارود يفجره على طغيان الاقطاعية والخنوع والتواكل والجهل ، بمهداً سبيل البناء القويم . اشتدت رقابة السلطات على الحفلات والاجتماعات التي كانت يدعى الريجاني الى الخطابة فيها وهدد المسؤولون عنها بأشد العقاب ان سمحوا للمتمرد بالقاء خطاب . ومن كان في عهد السلطان عبد الحميد ليجرؤ على تحدي التهديد ! فكان من الطبيعي ان تصدف الاندية عن السياسة فتحصر نشاطها بالادب . كانت اذا طلبت الى الامين ان يتكلم استحلفته ان لا يورطها في هجماته الصاعقة فكان يعتذر عن التلبية لا سيما وانه كان غارقاً في التأليف .

« انا منكم هذه الايام في كتاباتي الانكليزية وقد كتبت روايتين قصيرتين ونظمت عدة قصائد وبشرت نظم روايتي التمثيلية وقد انتهيت من جمع المقالات العربية ونقحتها وصححتها بجهدى ، وبعثت ايضاً الى

صديقنا محمد (كرد علي) بمقالة جديدة للمقتبس عنوانها « ربيع مفهوم »
وفجواها من العنوان مفهوم . وزد على هذا كله مشقة النحو وبليته وما
اقاسيه بين الفراء والمبرد وابن مالك والاختش . اي والله ، حينما تمر في
مخيلتي الفاء السببية يغشاني صراع شديد . ولما افكر في الفرق بين
المفعول به والمفعول فيه محل المغص بي وفيّ ومعني وعلي فأود لو عفاني
الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين . ولكن
فوق كل بلية بلية . وهي الآن ان اتخلص منكم ومن الخطابة في الجمعية
فكيف يمكن كتابة خطابي وانا مقيد من جهة بنظام جمعيتكم من جهة
واخرى بارادة المضروبجي (المراقب) وانت تعلم ان اكره شيء لدي
الضغط والتقييد فلا يمكنني والحال هذه ان اقول شيئاً يلذ او يفيد . ان
قوتي في حريتي لا في شعري . واذا وقفت على منبركم وقلت « يا جمل
يا بوبعة » عملاً برأي صديقنا قسطنطين فلا بد من ان احشر شيئاً من روحي
بين الكلمتين واشفق ان يسقط الجمل تحت اثقال الجمل ونهرب البوبعة
من الزوبعة فقل لي رأيك وخلصني من هذه المحنة ^١ .

انها طبيعة الملتزم الثائرة تأبى إلا الانطلاق البعيد في فضاء الحرية
اللامتناهي بل تأبى ان يكون بيانها لفظاً انيقاً من حبر وورق وحسب .

١ من رسالة الى جرجي باز وقد طلب اليه خطاباً لجمعية شمس البر .

استراحة في مصر

في سنة ١٩٠٧ كان يوسف الريحاني يعمل تاجراً في مصر فخطر للامين ان يزور اخاه فيلتقي من جديد اعواناً له في ارض الكنانة يتشوفون الى النهضة والتحرر ويبدد في التنقل ، وتبدل الاجواء ، سأمأ بدأ يعيش في حيويته كالعنكبوت .

وحقق رغبته هذه وتنعم بالراحة التامة التي حرمها حتى في صومعته ، فصرف شهراً كاملاً مسترخياً خلي البال :

« يتساءلون كيف اقضي ايامي هنا . فاني اظل في البيت الى الظهر . عندئذ اخرج فأجتمع بيوسف في المحل واتناول الطعام معه في الفندق وبعد ذلك اصرف قدر نصف ساعة او ساعة في قهوة مع جرائدي او كتابي واركيّتي . والقهواتية هنا يتقنون الاركيّة فيضعون في الرأس قدر نصف اوقية من التبك ويعبونها في شكل متسع ويلفونها بورق من التبك ايضاً حتى ان الرأس والتبك فيها يشبهان وردة صفراء كبيرة » .

واخاله ذكر ، ولا بد ، تلك التي حبت اليه بالامس تدخين الاركيّة على كرهه اياه ، وذكر معها فسحة من العمر كانت ترضيه فيها من الحياة حلوة من فم امرأة تواكبها ابتسامة ونظرة ، فترحم على الشباب الماتع . وخطرت له العودة الى نيويورك وألحت عليه ففكر في الأمر ثم

ابعدہ وتہیاً للرجوع الى لبنان .

الريحاني المتعبد

كان لأمه في نفسه هوى ولا اعحق . فقلما عصيها في امر او رد لها طلباً . كانت تسأله احياناً ان يرافقها الى الكنيسة المجاورة ، ايام الاعياد ، فيلبي مشيئتها على غير تردد ، يسمع القداس وحتى يتاوى رسائل القديس بولس ، ويقف خاشعاً متأملاً امام مذبح العذراء ، فيتهامس الحاضرون فيما بينهم حائرين كيف ان « الهرطوقي » الاكبر ، منشيء « المحالفة الثلاثية » ، النائر على الاكليروس والطقوس ، يدخل الهيكل المقدس وينجني اجلالاً امام رب العباد .

والواقع ان اميناً لم يكن مسيحياً ممارساً ولم يكن دخوله الكنيسة الا لمجاملة امه العريقة في التقى . لكن مما لا ريب فيه هو ايمانه الاكيد بالله على طريقته ، وثقته بالحقائق الازلية . ولكم سئل رأيه في الدين فأجاب رأساً : « لا دين لي اسماً ورسماً ولكني اعتقد بالله ابينا اجمعين واعتقد بالانحاء البشري » .

وبقبل الربيع ومعه الجمعة العظيمة فيعيش الامين بالذكرى ايام صباه ويحمله الخيال الى حقول الفتوة فيرى نفسه يركض حافياً في التلال المكسوة بالازهار يقطف طاقة ويحملها خاشعاً ليضعها عند

ويعاوده الحنين الى الغاب فيجمع طاقة من الزهر يضعها صاغراً
كسائر المؤمنين امام الصليب وهو يردد : « ان اكليل الشوك لا عظم
من تيجان القياصرة وكأس المر لأطيب من خمرة الاكاسرة » . جئت
الى الكنيسة لأردد اليوم مع الناس ذكر امير الناس ، بل ذكر الحقيقة
التي يعز نصرها بالعذاب ويحلو بمر الشراب ^١ .

لقد احتاج ان يردد ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب ذلك الذي
كان العذاب رفيقه الدائم ، فالداء العصبي ^٢ الذي انتاب يمناه كادت
تتواتر عليه نوباته فتسلبه الهدوء وتحرمه النوم وتقعده عن كل عمل
وتفكير وتأمل .

١ استمر هذا التقليد كل حياته ، في لبنان وخارجه ، وقد كتب الى اخته
سعدى في ٢٧ آذار سنة ١٩٣٢ قال : « يوم الجمعة الحزينة زرت كنيسة الكلدان
الكاثوليك في هذه المدينة وسمعت بطريرك الكلدان يعظ وعظته هائلة استعدنا بالله منها
ولكنني حسب عادتي حضرت جنازة المسيح وان كانت باللغة السريانية .

٢ كان لا يهدأ إلا بذلك وكانت امه تتولى امره . ولما ابتعد عن امه مضى
الى انكلترا يفتش عن آلة لذلك تحل محل اليد فوجدها . ولا تزال هذه الآلة
محفوظة في متحف الامين في دار الريحاني بالقريكة .

العزلة السامة

عرفنا اميناً يحب العزلة ويسعى اليها . لكنه كان يريد لها مختارة لا تفرض عليه ، شأنه في ذلك شأن امرسون وثورو . كان يحبها لأنها تفسح له التأمل والدرس والكتابة ويبغضها لأنها تجعله امام نفسه وجهاً لوجه فتسمعه انينها المهموس . كانت تتيح له العمل الفكري المستنفذ فينسى بالتعب ألمه . غير ان العمل لا يدوم ورتابته تورث الملل حتماً وهذا ما عبر عنه صاحبنا في تلك الفترة :

« لقد شبت من حياة الانفراد ، بل سئمتها وكرهتها وصرت اخشاها وألعتها بعض الاحيان . التخمة والسويداء والكابوس والبلاء وحديث البلاء وخبت الاتقياء ونأي الاحباء والفقر والشقاء والفشل في طلب العلا كل ذلك ولا الخمول . انا لم اخلق للخمول ، انا لست من اولئك الفلاسفة الذين يأكلون ارواحهم اذا لم يجدوا سوى ذلك طعاماً لعقولهم . اراني الآن بعد ان شربت كل ما في كأس لبنان من الجمال الطبيعي ، وبعد ان هضمت كل ما قدم الي من لذيذ الخيال ، اراني واقفاً مثل ذاك الهزبر الذي لاقاه بشر ، فاغرا في امام نفسي . فان لم اترحزح قريباً طالباً في غير هذه الأرض طعاماً للروح وللقلب يؤول امري الى مالا محمد عقباه . »

لقد شكنا ذلك الذي كرز بالتجلد وثار على المكاره والعذاب . وأي
امريء لا يخرج عن طبيعته الرصينة متى طفح عليه كيل المرارة والضجر .
فكيف لو لازمه الألم الجسدي ، فوق هذا ملازمة الظل ... ناهيك
بالتناقض بين حياة الامس وقوامها حركة وتنوع واحاسيس جديدة
وحياة اليوم الشبيهة بالأمر .

« ان دعا ابو العلاء نفسه رهين المحبين حق لي ان ادعو نفسي رهين
المحابيس : آلامي وعزلي والشغل الذي من اجله حبست نفسي في بيتي
هذا الصيف ... في يدي ما يشغلني ثماني ساعات في النهار ولا انتهي من
عملي حتى اكاد اسقط من التعب والألم العصبي » .

وخطرت له فكرة السفر الى غير ارض ، الى غير جو ، سعياً وراء
الجديد . ولكن كيف يرحل عن هذه البلاد وبذوره بزغت فيها وبرعمت
لكنها لما تثمر . اوليس من الضعف ان لا يسهم في الحصاد ؟

ويقلع عن فكرة الرحيل ويوطد عزمه على الاستمرار في الجهاد
فيخرج على تنسكه ويضاعف نشاطه الخطابي ويكثر من تنقلاته بين سوريا
وفلسطين ومصر ويكثر من الحث على الانعتاق وان عز الثمن حتى اينع
الثمر بانتصار تركيا الفتاة .

لكن اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ما كان إلا توطئة للاستقلال الحقيقي

في نظر الأمين . فالحرية السياسية ثانوية التأثير بالنسبة الى « عوامل الوراثة والفطرة والمعاشرة والتهديب » وهذه العوامل مرهون امرها بتطور المستوى الثقافي الفني . ومن هنا كان نداؤه الحاد : « ارفعوا اعلام الآداب في البلاد وشيدوا صروح التهذيب واسسوا معاهد للفنون » . وما كان ليقتصر نشاطه على اللفظ المزخرف ، وهو الاديب الواقعي الملتزم ، بل جسده عملاً بناءً فأسس في بيروت جمعية الحياة الادبية ^١ ، متوخياً منها نشر المعرفة على اوسع مدى للقضاء على التعصب والجهل . وانصرف الى كتابة روايته « خالد » بالانكليزية ومسرحية عبد الحميد بالعربية .

في طبريا

ان رأيت ذا حركة موصولة مرهقة فلا تحسبته دائماً منها الى الحياة يتهافت على استثمارها : فلرب متألم سائم ثقل عليه جبه الحياة فاستعاذ بالنشاط المستمر يذهل في غمرته عن واقع لا يحتمل . فالجهد الخلاق المستديم الذي كان يبذله الريحاني ومشقات الاسفار التي كان يتجشمها ما

١ ضمت فيمن ضمت اسعد رستم ، الدكتور الياس عبيد ، شبلي الملاط ، بشاره الخوري ، قسطنطين نعمة ثابت ، جرجي باز .

كانت إلا ظاهرة طبيعية لنفسية ناءت تحت عبئها فسعت حرائنة الى
التهرب منه .

إلا ان مثل هذا التهرب ليس إلا ضرباً من الافيون الذي لا بد ان
يورث ثقلاً مريراً يحسه المتهرب ، بكل حدته ، ساعة يصحو من الخدر .
مر الريحاني بساعات من « الصحوة » الناهشة ، وقد تأصل الداء في
اعصابه ، فتلوع وكاد يتفجر دموغاً ، فأقبل عليه المؤاسون يخففون من
بلوائه . هذا ينصح له بأن لا ينزع عنه قميص الصوف حتى في احتدام
القيظ وتلك تشير اليه ان يزور القديس دومط ويتبرك منه ، وذلك يهون
عليه المصاب بتعداده مصائب الغير . ولم تكن مصيبته بيده اكثر وطأة
عليه احياناً من بعض هذه النصائح والعظات .

لكن للطب كلمة مسموعة عند من آمن بقدرة العلم لا سيما اذا كان
الطبيب شاعراً صديقاً كالدكتور نقولا فياض . . . فأخذ الريحاني برأي
الطبيب الصديق الشاعر ومضى الى طبريا يستحم في بحيرتها . الا ان المياه
المعدنية لم تنجح ، فعاد الامين الى صومعته يجر وراءه خيبة جديدة .

الريحانيات

ويغضي الامين عن شلل يده مؤملاً نفسه بالدواء المبرىء في عيادات
الغرب ومختبراته . لقد اقعده بالامس عن السفر واجب النضال في

سبيل اعلان الدستور . اما اليوم وقد تحققت هذه الامنية فلماذا لا يتأهب للرحيل .

وعول على السفر لكنه آلى على نفسه ان يصدر بادیء بدء خواطره في الحياة والكون والناس ، تلك الخواطر التي دونها ابان اقامته في لبنان ونشر بعضها في الصحف . وما هي اسابيع حتى كان جزءاً «الريحانيات» الاولان في صدر المكتبات .

الرجوع الى اميركة

بعد ان قطف الريحاني ازاهر المجد الادبي في بلاده شد الرحال الى اوروبة فأميركة غير آبه بدموع امه التي احبها حباً فريداً والتي عود ظهره على يديها ساعة كانت تشتد عليه الازمة العصبية فيلجأ الى الدلك كوسيلة وحيدة لتنويم الألم .

وركب البحر في ربيع سنة ١٩١٠ تتنازعه اقطاب ثلاثة : لبنان وباريس ونيويورك « في الاول روعي وفي الثانية قلبي وفي الثالثة قوتي وثباتي » . وما هي ايام حتى حط في مرفأ مرسيليا حيث كان صديقه النحات يوسف الحويك في استقباله ، فانتقلا معاً الى باريس والتقيا فيها صديقاً ثالثاً كان يدرس اصول التصوير في اكااديمية جوليان ويحيي الليالي على نور سراج ضئيل بين بنات تموز نسوة الخيال (ذكرى جبران) .

في عاصمة الجمال قضى الريحاني والحويك وجبران ساعات من زهرة
العمر ثم سبق الأمين رفيقيه الى لندن ساعياً وراء آلة لذلك تغنيه عن
اصابع امه البعيدة عنه .

واجتمع الثالث في لندن من جديد ، وقد وجد العليل فيها ضالته ،
ففكروا في مشروعات خطيرة يتعاونون على تحقيقها بعد الرجوع . وكان
في طليعة هذه المشروعات تأسيس دار للاوبرا في بيروت رسم جبران
مخططها الاول . وقد ظهرت فيه قبتان ترمزان الى المسيحية والاسلام
تتصافحان . فوق المخطط كل من الثلاثة ، وكتب الريحاني فوقه « اول
كلمة من قصيدة لم تنظم . لفظت في لندن في غرة تموز سنة ١٩١٠ . ١ »
ولم يكن جو لندن الضبابي ليرضي طويلاً من ألف شمس لبنان فعاد
جبران والحويك الى فرنسا ، وانتقل امين وحده الى نيويورك حاملاً الى
اخوانه المهاجرين شيئاً « من نفس الآلهة من لبنان » وحاملاً الى المطابع
مخطوطته الانكليزية كتاب « خالد » الذي انشأه في هدأة الفريكة ووضع
جبران رسومه في باريس .

وفي اوائل سنة ١٩١١ اصدرت شركة « ددميد » النيويوركية رواية
الامين فتلقتهما الاوساط الراقية والصحف الكبرى بالتقدير المشجع .

الريحاني والعرب

كان امين ولعاً بقراءة سير العظماء ، فما وقعت يده على واحدة منها الا التهمها وقتش عن سواها . فاستوقفه ذات يوم كتاب « الابطال » لكارليل وفيه بحث حول ايجاد العرب الغابرة ورسولهم الاكبر ، فاشتد اعجابه باخوانه الذين كان يجهل عنهم كل شيء الا ما كان يسمعه ايام الطفولة ساعة كان يبكي لسبب ما : « هس جا البدوي والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام بعبعاً تخوف به ولدها » .

وبلغ منه الاعجاب بالعرب حد التفكير بزيارة كل اقطارهم لدرس احوالهم عن قرب . فلما ان ولى صيف سنة ١٩١١ حتى حمل حقيبةته واستقل الباخرة الى لبنان ليعد فيه عدة الرحلة .

في واديه الانيس اجتمع الى صديقه محمد كرد علي وكاشفه بعزمه على القيام برحلة الى البادية ، على هجين يبعده عن كل مظلمة فهال صديقه وقال : نسير سوية . واتفقا يومئذ على ان يستعينا بتجار من نجد في الشام يهدون لها السبيل ويزودانها بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود . لكن الأيام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في

القلوب . تأثرت السلطة الاثيمة محمد كرد علي فاضطر الى ان يتترك صاحبه وحده في الفريكة ويفر هارباً من سوريا ^١ .

وارغم الرياحاني على ارجاء رحلته الى ان تنهي له الاسباب ، فانزوى في صومعته من جديد يقرأ كل بحث يقع عليه عن العرب والبادية ولا يمل . وكان اذا ارهقه العمل الفكري ترك ادبه وقصد الى خلانه ، ومعظمهم في بيروت ، ليقضي معهم ساعات طرب وسمر في جو حميم .

في مقهى من مقاهي الشاطئ البيروتي ، صغير وادع ، مبني بالحشب ، مسقوف بالحصائر ، تلعب بين ركائزه الامواج ، الى جنب المربع الفخم الحافل في هذه الايام ببنات الفنون العلية ، هناك في تلك الزاوية المنخفضة من محلة الزيتونة ، كان الرياحاني وصحبه يجلسون ساعة الغروب حول بطيحات من العرق وصحيفات من الابازير ، تقدم بينها زجاجة « برنو » لسيد الحلقة الشيخ اسكندر العازار ^٢ .

كان الرياحاني حينئذ يقرأ كتابي رينان « حياة يسوع » و « شقيقتي

١ مقدمة ملوك العرب

٢ ملوك العرب ص ٣٤٠ . كان يجتمع في ذلك المقهى الاخطل الصغير ، وشبلي الملاط ، ويوسف ثابت ، وجرجي سعد ، وبثرو باولي ، ومحي الدين الغازي ، وامين تقي الدين ، وجميل المعلوف .

هزيت « فذكر ما كان من فضلها على شقيقها وأدبه ، وقال ان قبرها في عمشيت جدير بأن يحج اليه الصالحون ، فقر الرأي على الحجة وضربوا لها موعداً . واذا بهم بعد ايام على ضريح الادبية يحييون ذكرها الحمسينية بنحشوع المؤمنين . وقد كان لهذه الزيارة اثر عميق في نفس تلميذ رينان عبر عنه في فصول مسهبة من « قلب لبنان » .

مي

في تلك السنة كانت مي زيادة تقضي فرصة الصيف في « كوخها الأخضر » في ضهور الشوير . سمعت بعودة الريحاني فشاقتها ان تتعرف اليه ، وقد استحسننت نتاجه الحار في الريحانيات ورأت رأيه في الدعوة التحررية . وابتدت الادبية الناشئة رغبتها تلك الى صديق للأمين فحملها اليه ، واذا بها (الامين وصديقه) في رحاب « الكوخ » يتبادلات والادبية حديث الشعر والصبابة والجمال في لبنان .

ودعا الريحاني ميأ الى الفريكة فلبت شاكرة ، واقبلت بعد ايام ، مع ابيا وبعض الادباء ، تزور جانباً من الوادي متمسة خطوط الصخور والأشجار متمسة هيمنة النسائم وهدير النهر المهرول الى حضن البحر ومتمسة ايضاً ذلك السر الغريب يجذبها الى قرية متواضعة بعيدة .

ويأتي الحريف وترجع مي الى مصر وللفريكة منزلة لديها ولا اسمى . لقد وجد الأمين هو الآخر ، في نزيلة « الكوخ الأخضر » المثل الأعلى

الذي تخيله للفتاة الشرقية الراقية : انوثة باهرة ، وذكاء وثقافة وذوق
واتزان ، فانطبعت ملاحمها البارزة في صميمه تمد شعوره ساعة يروقه
الاستلھام .

ويتنسك الامين ، في صومعته و يدرس ويكتب ويتأمل كعادته
ويستقبل الرفقاء المخلصين الذين كانوا يفدون اليه بأخبارهم ومشكلاتهم
فيتشاورون ويتعاونون كأخلص الاخوان . وكان الى هذا لا يني
يحاول تحقيق رحلته الى البادية فتعزأ به الاقدار وتحطم امانيه حتى
طوحت به اخيراً وابعدته عن الوادي وعن البلاد العربية كلها فاذا به في
آخر الصيف يركب البحر كسيرواً الى العالم الجديد .

في اثناء الطريق عرج الريحاني الى باريس ، وقد قيل له ان فيها
مستوصفاً حديثاً للآلام العصبية ، فخاب فآله فيها وعاد بألم جديد ...
لقد رشقته حسناء فرنسية بنظرة حمراء ايقظت في قلبه شعوراً حسبه
قد توارى مع غرزوزيته الغريقة الى الابد ، فأرسل دمعة محرقة على
النعيم الزائل .

« ما اجمل ايام الحب ، يا حبيبة قلبي ، وما اقصرها ! ما احلى سكرات
الحب ، يا نور حياتي ، وما ابصر صاحبها فانه ليرى ما لا يراه الناس .
انه ليرى ما لا يراه غير الآلهة . حبذا عيون الحب انظر فيها الى كل شيء »

فتريني الدنيا جنة ولا جنات اصحاب النبوات . حبذا ساعة يغفو عنها
الزمان فتبقى لنا ونبقى لها مدى الدهر . ان يوم الحب في جبين الدهر
كقوس قذح في كبد السماء ، او كزهر المسيح في نخاريب الصخور في
لبنان .

... ما اجمل الحب وما أحلاه من قلبك ، ومن روحك ، ومن
جسدك . ما أله من عينك ، ومن يدك ، ومن صدرك ، ومن كل ذرة
من جسمك السماوي . عدت في هذه الساعة الى غرفتي ، الغرفة التي
قدسها حبنا فقبّلت الكرسي التي كنت تجلسين عليها ، وقبّلت الارض
التي وطئتها حافية ، وقبّلت الفراش الذي ضمخته بطيب جسدك وبأريج
نفسك . وغداً صباحاً اقبل الباب الذي كنت تطرقينه وتفتحينه بيدك
الجميلة واهجر غرفة ملأناها حباً ونوراً وبخوراً .

وقبل المتيم الباب الذي طرقته الحبيبة واغلقه على انفاسها الحرى ، وعاد
وحده الى نيويورك ...

غريب

« من الاشجار اذا نقلتها تموت ومنها ما تقف زمناً بنموها ، وكما تتألم
عندما تقتلعها من التربة التي الفتها ... انا من تلك الاشجار وفي جذوع
نفسي مئة جرح » . هذا ما همس به الأمين الى صديقه سليم دريان ، في رسالة

حميمة من لندن يشكو غربته في بلد لم تألفها جذوره . وهل ألفت جذوره
حقاً تربة لبنان ؟ لربما الفتها أكثر من اية تربة . لكنه مع هذا ما انفك
يشعر بغربة حتى في صميم الفريكة ... انه — حال المتمردين على القالب
التراي ، المشككين بأوهام الحياة ، لا يستقرون في أي مكان ، ولا يطمثون
الى اي شيء . انهم ابداء في توق مبرح الى جديد لا تبلى جدته ، انهم ابداء
في حنين الى وطن ولا كسائر الاوطان .

سثم الأمين لبنات بالامس فتركه قاصداً الى المجهول . ثم سثم
نيويورك ولعن مدينة احشاؤها من حديد وفيها عقمه ، وصدرها من
خشب وفيها سوسه ، وفمها من النحاس وعليها صداؤه ، وجبينها من
رخام ، وفي جمالها جموده . لكأن العالم ، قديمه وجديده ، لا يتسع له
فيفتش عن هنائه في عالم امثل اعياء وجوده فتصوره في خطوطه الكبرى
وحاول ان يجسمه ويعيش فيه بما كتب ويكتب .

وكان هذا السأم خير حافز لصاحبنا على النتاج فحمله على ان ينصرف
الى قلمه طوال سنتين يجتر قلقة وينشئ تارة بالانكليزية وطوراً
بالعربية ١ .

١ كان ينظم بعض قصائد « جادة الرؤيا » ويعد بعض فصول « زنبقة الغور »
و « جهان » .

وهكذا بين ثورة وألم وحلم وخيبة وملل انقضت المرحلة الثانية من
شباب أديينا فتروضت اعصابه على احتمال تقلبات الوجود وتمرس و يشته
على التعبير عن مآسيه .

في الحرب الكونية الاولى

اخذ الافق السياسي العالمي يتلبد ، شتاء سنة ١٩١٤ ، فتوقع الناس نشوب حرب بين ساعة وساعة ، فخاف الريجاني مغبة الامر ، وهو في نيويورك ، وقلق على مصير اهله فجار بين ان يستقدمهم اليه ، او ان يرجع اليهم . وطالت حيرته ، والحالة السياسية بين مد وجزر ، حتى اندلعت النار وغمر لهيبها العالم القديم ، فبقي امين في اميركة .

كان من الطبيعي ان لا يقف الاديب الملتزم موقف المتفرج في غمرة ذلك الصراع . فأخذ جانب الحلفاء ، جانب العمل على تقويض السلطنة العثمانية وتحرير البلدان العربية من نيرها ، فجعل يكتب ويحاضر داعياً بني قومه الى الانخراط في صفوف الصامدين بوجه الطغيان الجرمانى التركي ، وعاملاً على نهضة الرأي العام الاميركي لأن يتجه اتجاهه . وكانت

القارة الاميركية عهد ذاك بعيدة عن جحيم القنابل تجري الحياة فيها -
مجراها الطبيعي السلمي . الحفلات تقام في مواسمها ، والمعارض تفتح
كعادتها كما لو ان الكارثة العالمية لم تكن . وكان لسان فرنسيسكو حظ
كبير من مظاهر الجمال . ففي صيف سنة ١٩١٥ نظم فيها معرض للرسم
واسع النطاق اسهمت فيه كثرة من الفنانين نالت جائزته الاولى فتاة
سكوتلاندية الاصل ، تقيم في ولاية كاليفورنيا ، تدعى برتا كايس^١ ،
فنشرت الصحف المعنية بالرسم صورة الفنانة الناشئة مقرظة معجبة .
استلقت الريحاني صورة تلك الانسة بقدر ما استلفته موهبتها فشاقه
ان يجتمع اليها ويسر اليها ببعض اعجابه .

وشاء احد الاصدقاء الاميركيين ان لا يحرم اميناً متعة الاجتماع الى
الفنانة فأهدى اليها كتاب « خالد » ودعاها الى حفلة دعي اليها مؤلف
الرواية ... وتحقق اللقاء الاول بين الرسامة والكاتب .
انس اللبناني المستوحى القلق الى تلك الحسنة الراقية بقدر ما انست
هي اليه ونمت الالفة بينها حتى تطورت الى حب . وفي تلك الغضون نشر

١ على اثر عودتها من شمالي افريقية حيث اقامت سنوات ترسم وتدرس عادات
تلك المنطقة .

الريحاني « زنبقة الغور »^١ فلم تنجح كرواية ، لكنها جاءت تمهيداً
بارعاً لهذا اللون الذي خطا من بعد خطوات سريعة الى الامام .

سارت الحرب سيرها وازداد قلق الامين على اهله ومواطنيه ، وقد
بلغه ان الجبل اللبناني المستقل خضع لسيطرة بني عثمان وتفشت فيه المجاعة
والامراض ، فضاقت به الدنيا وانتهكته الوسوس .

ويأبى الكاتب الملتزم ان يجوع بنو قومه ويبقى هو مكتوف اليدين
ولكن ماذا يمكنه ان يعمل وهو ليس من اصحاب السلطة ليفرض
ضريبة على اخوانه في المهجر ! ... لكنه من اصحاب الرأي المسموع ،
فدعاهم الى الصوم يوماً واحداً يدفعون ما يوفرون فيه اعانة
للمنكوبين^٢ .

بدأ بنفسه ، شأن كل رسول ، فصام عن الاكل والشرب والتدخين
يومين كاملين . ما شعر بالجوع اول الامر ، لكنه احس بطنين في اذنه
وبتجفف في لسانه وبشيء من المرارة في فمه . وبعد انقضاء اليوم الاول
بدأ يشعر بالجوع والعطش وبشيء من الدوار .

١ طبعتها دار الفنون في نيويورك سنة ١٩١٧ وهي تزيد عن ٣٠٠ صفحة

من الحجم الكبير .

٢ القوميات ص ٩٨

كان في اصيل النهار يتمشى وصديقاً له في احد شوارع المدينة فمرا بمطعم
عرضت في واجهته انواع من الحبز والكعك والحلوى ، فوقف امام
الزجاج الحائل دونه وتلك الجنة ناسياً ذاته يتمثل في نفسه فقيراً جائعاً
لا فلس في يده يخفف به سورة جوعه . واختيرت عيناه الزجاج الى
الطعام فتحلب اللعاب في فمه فغص بمر مذاقه .

وازداد جوعه في اليوم الثاني فاذا بفمه كالكطن جفافاً واذا بأذنيه
تردادان طنيناً على حد قوله ، واذا برأسه جسم غريب ركب موقتاً بين
كتفيه فقال في نفسه « قد عضك الجوع يا هذا ، فدنوت من اخوانك في
الوطن » .

ونجح الامين في سعيه فجمع من المال قسطاً كبيراً ارسله الى الجياع
من اخوانه المقيمين في اوائل سنة ١٩١٦ ١ .

لكنما الحرب طالت فليج به الشوق الى جو حميم . فآين هي تلك الفئاة
اللبقة لتخفف من سويدائه !

كانت تعنى بوضع قصص افلام فتؤم نيويورك من حين الى حين لتعرض
نتائجها على شركات السينما وتنزل بعض ايام في فندق « الفن » قبل ان
تعود الى ولايتها .

١ كان من افعلى اركان اللجنة السورية اللبنانية لاغاثة المنكوبين

استقصى امين كل هذه الاخبار عنها بدقة وترقب موعد قدومها الى الفندق
فلما حلت فيه قصدها وتنفس قربها بانسراح لم يعرفه منذ عهد بعيد .

زواج

شقراء هيفاء ، برتا ، زرقاء العينين ، نضرة الصبا سريعة الحاطر ،
خفيفة الروح ، ملأت قلب الامين الشاكي الفراغ فصار اذا اتعبه الا
وارهقته مشقات الحياة يعود اليها فيجد لديها العذوبة والعزاء .

وتواتر اللقاء بينها طوال سنة فتمكن الحب منها واوحى الى الاديب
الرصين فكرة الزواج ... لقد جمعت برتا الى الانوثة الطرية خلقاً رضيعاً
وفناً غنياً فلم لا يختارها رفيقة عمره ؟ سؤال طرحه غير مرة على نفسه
فكان ارتياحها الظاهر خير جواب . وبينما هما يتساقيان الهوى ذات ليلة
عرض عليها فكرته فاستصوبتها وقد ايقنت من تأمر كه الناجز .
وما دار في خلدها آنذاك ان الطبع قد يغلب التطبع فيه يوماً ! ...

وتجسدت احلام الخيال واقعاً حسب كل من امين وبرتتا ما زال احلاماً
واذا بهما في احدى المحاكم المدنية في نيويورك ، يصغيان الى القاضي يتلو
عقد الزواج وكأنهما يستكشفان في عالم الغيب نجم حياتهما الجديدة .

*

كانت الصحف الاميركية ظمأى الى الاخبار الوثيقة المصدر عن

ساحات القتال في اوروبا فأوفدت مجلتي « البوكمين » و « الفوروم » اميناً
وكان يحزر فيها عهد ذاك ، الى الجبهة الغربية ليطلعها بتفصيل ودقة على
تطور الاوضاع الحربية فيها . فصحب عروسه الى باريس حيث
عرفته الى اصدقاء الفنانين وبينهم ماتيس وبيكاسو . وهناك توطدت
علاقته بالاديين اللبنانيين المناضلين خير الله خير الله وشكري غانم ،
فأخبره هذا ذات يوم ، ان وزارة الحربية الفرنسية تؤلف الزحف على
سوريا فيلقاً يدعى « فيلق الشرق » وتحب ان يتطوع السوريون فيه
ليكون لهم يد في تحرير بلادهم ^١ . وسأله هل الدعوة الى التطوع في اميركة
تصادف قبولا فأجابه ان السوريين لا يلبون الدعوة الا اذا كانت رسمية
او بالحري اذا تأكدوا ان الحكومة الفرنسية نفسها تدعوهم الى التطوع .
ولكن فرنسا لم تكن ، ذاك الحين ، في حالة تمكنها من الجهر بهذه
الدعوة فأهملت . بعد شهر دخلت اميركة الحرب فتأسست ، لهذه
الغاية ، اللجنة السورية اللبنانية في باريس اداة وصل بين فرنسا وهؤلاء ^٢
وكان من اول اعمالها انها بعثت وفداً الى اميركة الجنوبية ليدعو

١ القوميات ص ١٢٦

٢ لجنة تحرير سوريا ولبنان . وكان الريجاني من اعضائها البارزين .

السوريين فيها الى التطوع » .

من فرنسا انتقل الامين وزوجته الى اسبانية حيث اراها اجداد العرب في بعض ما بقي من آثارهم في اشبيلية وغرناطة وقرطبة وكأنه يقول لها مفاخرأ « اولئك اجدادي » ... واذ خشي ان تنقطع المواصلات البحرية عبر الاطلسي ، بعد ان اشتركت الولايات المتحدة في الحرب ، هرول وقرينته الى نيويورك^١ . وهناك كلفته لجنة تحرير سوريا ولبنان بمهمة سياسية في المكسيك ترمي الى توحيد صفوف المغتربين لجانب الحلفاء ، فسافر الى مكسيكو حيث زوال اخوه يوسف التجارة ، وجعل يخطب في انديتها ويتصل بالسوريين واللبنانيين فيها يحرضهم على التطوع والتبرع في سبيل تحرير لبنان على يد فرنسا ... فلم يرق عمله هذا الحكومة المكسيكية ، وكانت تميل الى المانيا ، فأبعدته عن ارضها . فمضى الى الولايات المتحدة يستأنف فيها نشاطه السياسي وهو على اشد ما يكون حمية واخلاصاً .

كثيراً ما هفا الريحاني الى جو عائلي آمن في اميركة^٢ ينسبه مصاعب

١ اقام له اصدقاءه الادباء حفلة تكريمية تكلم فيها جبران ، وعبد المسيح حداد ، ونعيمة وابو ماضي وعريضة وكاستفليس .

٢ بعد زواجه ترك امين نادي المؤلفين وسكن في شرقي الشارع السادس والثمانين

الزمان فما تحقق له ذلك الا بعد الزواج . فشر ، لأول مرة ، بالطمأنينة التي فيها في الفريكة في كنف امه واخته ، رغم اضطراب الاحوال العالمية ، فأعطى لقلمه مداه .

لقد تفهمت برتا مزاجه فطاوعته ، فعاشا رفيقين متفاهمين ينصرفان في النهار الى فنهما ويتبادلان الرأي في السهرة حول ما اخرجاه . وكثيراً ما احتدم النقاش بينهما حول رأي او مدرسة فكان الاقتناع المخلص خير حكم ، ولا غرو فأمين كان ناقداً تصويرياً معروفاً وبرتا اتقنت صناعة القلم في معالجة الاقاصيص . فكانت تلك المرحلة من اخصب مراحل العمر نتاجاً بالنسبة اليها .

في غمرة هذا الاستقرار المنزلي انجز امين « جهان » او « خارج الحرم » بالانكليزية ^١ . فراجت الرواية رواجاً كبيراً في اوساط المغتربين ، الناقمة يومذاك على الاستبداد العثماني المتعطشة الى الثار .

وفي تلك السنة ^٢ انتصرت الثورة اللينينية في روسيا وسيطر البلاشفة على الحكم فغدت الشيوعية في حقيقتها وتاريخها ونظرياتها حديث الناس في العالم فراح امين يدرس هذه الايديولوجية وانشأ ابجاثاً متسلسلة تناولتها

١ ترجمها عبد المسيح حداد الى العربية

(٢) ١٩١٧

خلال العصور . وفي هذه الفترة توطدت علاقته اكثر من ذي قبل بأدباء المهجر ولا سيما جبران ونعيمة وعبد المسيح حداد وعريضة ، فكانوا يجتمعون اكثر ما يجتمعون حول كأس من العرق في احد المقاهي العربية او في صومعة جبران او في مكتب مجلة « السائح » فيتبادلون الرأي في نتائجهم وفي شؤون الادب عامة ويتسامرون في جو ودي مرح .

مع ولز

لما اعلنت الهدنة في خريف سنة ١٩١٨ انعقد في واشنطن مؤتمر دولي لتخفيض السلاح فاشترك فيه الريحاني فاجتمع بالكاتب الانكليزي صاحب النظرية المستقبلية ، ه . ج . ولز وكان يمثل جريدة نيويورك كبرى ثم زاره في منزله ودار بينهما حوار طريف حول مسألة الشرق والغرب ، الذين لا يلتقيان الفيلسوف البريطاني في سياقه ان اوروبه سائرة الى الدمار انما لا يزال عندها اشياء يمكن ان يفيد الشرقيون منها ، وخير لهم ان يسرعوا . من هذه الاشياء العلوم التقنية التي لا يقوم الاستقلال الاقتصادي إلا باتقانها . اما مصيبة ابناء الشرق ، على حد قوله ، فهي استرسال ابناءه في الشعر .

وترك هذا الاجتماع اثره في نفس ولز فكتب مقالا اشار فيه الى

« المسلم السوري » الذي زاره ! ... ١

« في صباح يوم من كانون الثاني سنة ١٩١٩ اشتد برده كانت السيارات الجميلة تتقاطر في نيويورك نحو البحر ، فتقف امام مرسى احدى البواخر الكبرى يخرج منها الامير كيون رجالا ونساء وقد جاؤوا من اقاصي الولايات المتحدة وأدناها ، وهم الى السياحة التي فطموا عنها مدة الحرب اشد شوقاً من الطير المسجون الى الفلاة ^٢ في ذلك الصباح ودع امين نيويورك ومحجته غير محجة السياح ، فما تلفتت منه العين ولا القلب عندما ابجرت الباخرة « الادرياتيك » ومرت بتمثال الحرية . كان وحده ، ولم يخطر له انه سيلقى بين ذاك الرهط الفخم احداً يعرفه . واذا به ، وهو يسير الى غرفته ، يلتقي رفيق المؤتمر وقد ارهقه التعب والضجر ، فيستأنفان حديثها الفكري الفني ويتبادلان الرأي حول النقاط التي قد يمكن ان يلتقي الشرق والغرب عندها رغم انف كبلنغ واتباعه ... وقد كتب امين غير مقال حلل فيه شخصية ولز الفذة واخلاقه ونظرياته في مستقبل العالم ومصر ، والاشتراكية وفي الدين والحب والزواج . واستند ولز

١ وجوه شرقية غربية ص ٨٤

٢ وجوه شرقية غربية ص ٧٩

الى رأي الريجاني غير مرة في كتابه المعروف *The shape of things to come*

ولما عاد امين من سياحته في اوروبة الى نيويورك اعد الفصول التي عقدها عن البلشفية ونشرها في كتاب مستقل في اوائل سنة ١٩٢٠ ١ . كانت شهرته آنذاك قد اتسعت في العالم الجديد فكتبت عنه كبريات الصحف مقرظة وطلب اليه بعضها ان يسهم في تحريرها ففعل . ودر عليه قلمه مالا وفيراً انفقه عن سعة . لكن كل هذا لم يستأثر به دون وطنه لبنان فهاجه الحنين اليه وهزه الشوق الى التوفيق بين الشعر الدافق من واديه بالفريكة وبين تقنية الغرب الحديثة ، فدار معظم مقالاته حول بعث الروح الشرقية في الحضارة المادية .

طال انقطاعه عن صحبه في لبنان حتى صار يخاف ان يسأل عنهم فلرب صديق توارى ولرب صديق نكب . « يتبادر الى ذهني ويتسارع الى قلبي اسماء كثيرين من الاصحاب والحلان ولكنني صرت اخشى ان اسأل عن احد وصرت اشعر اني غريب في تلك الديار » ٢ .

١ *The descent of Bolshevism* (تحدر البلشفية) .

٢ من رسالة الى الاخطل الصغير وكان يحور « البرق »

وتعاوده فكرة الرحلة الى البادية وقد تقلص ظل الاتراك عنها وسهلت
الى حد ما ، اسباب التنقل . لكنه اصبح اليوم غيره في الامس وقد اربت
سنه على الاربعين والخمس وقيده فوق هذا تبعة الزواج ... ترى اترافقه
برتاً في رحلته الغربية العجيبة ! ام تهزأ به وتنعته بالحبل ! ... سؤال
طرحه على نفسه فكان التردد الواجب جوابها فرجع الى التأليف الى ان
يفرج الله .

بين امين وجبران

كانت علاقة الريحاني بجبران ودية كما رأينا واستمرت كذلك طويلاً
رغم ان احدهما كاتب واقعي يعمل على الاصلاح في مكان معين وزمان
معين والآخر شاعر خيالي ينشد المطلق خلال ضباب العصور . ولا غرو
فكلاهما فنان في طبيعته ، شرقي في روحه ، يؤمن برفعة الروح على
المادة ويشعر بغربة حيثما حل . كلاهما سائم يفتش عن افیون يخذع به
سأمه .

كانا يا كلان معاً في مقهى صغير في الجادة السادسة في نيويورك
« ذلك الجحيم في قتامة وازدحامه وضجيجيه » . ثم يعودان إما الى كوخ
امين او الى صومعة جبران فيجلسان « على ديوان المجد المفقود ويلعنان
كل ما في الوجود » . ثم يسكران بمقال كتباه او قصيدة نظمها فيرسلان

الابيات في مديح رب الكائنات ويبيعان نيويورك ثانية بخمسة وعشرين دولاراً وكلاهما يود « لو كان الكون كله طاقة من الازهار يحملها الى العرش الاعلى عرش الحب الخالد ، عرش الله »^١ .

كانا يجتمعان من حين الى حين في شبه صالة ادبية تديرها احدي الاميركيات المتاجرات فيتشاوران هنالك ويتطارحان الحواطر ما طاب لهما . الا ان هذه السيدة شامت ، على ما يظهر ، ان تستغل التنافس بينهما فجعلت تخلق افتراءتوا فتراء حتى توتر الجوالودي بين قطبي الادب المهجري عهد ذاك فتباعدا على غير عداوة ظاهرة .

ويقول بعض المقربين من الرجلين ان اختلافها اساسه تعارض في التوجيه السياسي . بينما يؤكّد غيرهم ان السبب الجوهرى هو نزاع على كسب ثقة امرأة لبنانية ثرية راقية . اما مخايل نعيمة فيقول ان ثمة سرّاً اوّثمن عليه لا يبوح به . وهذا ما يبرر عدم اشتراك الريحاني في الرابطة القلمية و كان البحث قد جرى عامذاك لتأليفها .

جارية الرؤيا وانشودة المتصوفين

ما انفكت فكرة الرحلة الى الجزيرة العربية تلح على الريحاني فيرجىء

١ من رسالة الى نعيمة رداً على كتابه « جبران خليل جبران » وما جاء فيه عن مسلك صاحب « البين » التهتكى .

تحقيقها الى ان تنهيا لها الاسباب . ومن هذه الاسباب كان اقناع برتا ،
وهو امر ليس بالهين ، ومنها انصرافه الى تنقيح كتابيه بالانكليزية
« مسلك الرؤيا » و « انشودة المتصوفين » .^١

بيد ان هذين الكتابين ما عتبا ان صدرا عن دار جمس هوايت فرسخا
شهرة الامين في الادب الانكليزي .

*

« من الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك ترعجه
وان شاخت فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها ويحقق مسعاه » .
ما ان نفض امين يده من كتابيه الانكليزين « جادة الرؤيا »
و « انشودة المتصوفين » حتى داعبت خياله من جديد فكرة الرحلة الى
البادية فأطلع زوجته عليها وسألها رأيها فاستهجننت كلامه . كيف لا وقد
قرأ آمعاً قبل اسابيع ما عناه الاديب السكتلندي تشارلز دوطي في
تنقله على ظهور الابل والحمير في عنيزة والنفود . كان كلما حاول اقناعها
بكرم العرب وسعة صدرهم نفرت منه والسخرية تغلف ابتسامتها .

لكن موقف برتا والمعارضين من الاصدقاء ما كان الا ليزيد عزيمته
صلابة . فمضى يطالع بنهم اشد كل كتاب وقع عليه عن العرب وبلادهم

1 A Chant of Mystics. The Path of vision

من « قلب البلاد العربية وشرقها » لوليم بلغراف ، الى « سياحة في بلاد العرب » لجون بر كهارت ، الى « الحج الى المدينة ومكة » لرتشارد برتن الى « التجوال في البلاد العربية » لتشارلز دوطي ، والى غير بحث او خبر عن شؤون الجزيرة واهلها .

واتفق ان انبأته « مجلة سر كيس » بأن رفيق جهاده قسطنطين يني ، الذي ابعده عنه الحرب العظمى وحرمة اخباره ، هو في خدمة الحسين عاھل الحجاز فكتب اليه يسأله هل يأذن له بالزيارة . وبانتظار الجواب جعل يقنع برتا بمرافقته الى البادية ثم الى لبنان « مورد الشعر » ولكن على غير طائل . لقد ابت ان تترك الولايات المتحدة ، حيث مستذوقو فنھا ، لتقوم بسفرة خشيت ان لا تعود منها .

ورد جواب قسطنطين وفيه يقول : « اتفق ان وصل كتابك الى جلالة الملك الحسين في جدة وقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع ، وهو يرحب بك اذا حضرت . اما زيارتك الرياض وابن سعود فمستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز . . . والسياسة يوافق ان تكون في فصل الشتاء . . . اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها للأسباب المعروفة » . ونقل امين جواب صديقه الى برتا واكد لها عزمه على السفر معها تكن العواقب فعارضته بعنف . ولما اخفقت انصرف عنه الى اقاربها

في كاليفورنيا ، فأرسل اليها كتابا يعلنها فيه قراره النهائي ويسألها أن
تلتحق به الى جزر الباليار حيث يستقلان الباخرة الى البصرة عن طريق
الهند فاعتصمت بصمت ابي الهول .

ولما يش من وصول جوابها مضى يحقق حلمه ، مضى يزور « امة تجلس
في اطهارها على الأرض ، وتأكل التمر ، وتشرب الماء العكر ، وهي
تحدث في الشمم والاباء ، وفي الصدق والوفاء ، وفي الكرم والشجاعة ،
وفي الحرية التي هي عندها الكنز الاكبر »^١ . صفات حبيت اليه الدهناء
والنفود والمضارب في الأودية والشعاب .

بلغ الريحاني وادي النيل في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩٢٢ فأرعى
شاربيه ولبس الطربوش المصري وجعل يتصل بالاطراف السياسية والأدبية
ويطلع على توجيهها . فأثارت هذه الزيارة موسماً للحفلات التكريمية
والاسواق الفكرية . وقد لمس الضيف الاديب تقدماً حثيثاً في الحياة
الاجتماعية والثقافية شجعه على التفاؤل بمستقبل الشرق وشدد عزيمته على
الاستمرار في نضاله الاصلاحى .

وقبل ان ينقضي الشهر ، انطلق الامين من القاهرة الى السويس

ليبحر منها الى جدة ، باب الجزيرة العربية ، حاملاً في صدره ايماناً عامراً
باخوانه في البادية . وصل اليها في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٢ فاتصل بالحسين
واخبره بقدومه فخفف جلالته لاستقباله وهو يقول : « وهلا نقطع فرسخاً
لنلاقي من قطع البحار وتجسم الاخطار في زيارتنا ! »

وتتالت الاجتماعات بين الحسين والامين في الحجاز ودار معظمها
حول السياسة العالمية وتطوراتها بالنسبة الى العرب وحول مطامع الغرب
في الجزيرة .

ساح الريحاني ورفيقاه فؤاد الخطيب وقسطنطين بني طوال اسبوع في
الحجاز . فوافاه ذات يوم احد عبيد السلطان يحمل اليه كسوة عربية
وخنجرأً مكياً وقطعة مزر كشة بالذهب من ستار الكعبة ، فلبس
القميص البدوي ذات الاردان ثم العباءة ، ثم عقال الذهب ، وتمنطق بالخنجر
وراح يشكر لصاحب الجلالة هديته . ولما رآه الملك في تلك الصورة بسط
ذراعيه هاتفاً :

« يا حبيبي يا عيني » وضمه الى صدره وقبله فأحس امين من شدة تأثره بشيء
غشي عينيه فبادر الى مكان المنديل من ثوبه الجديد فما وجد حتى الجيبة
فيه ، فمسح الدمع بردنه فضحك جلالته وقال : « حقاً انك بدوي

لمس الحسين لدى الامين اخلاصاً كبيراً للعرب وقضاياهم واندفاعاً في خدمتهم فانفتح له مطمئناً وعرض عليه مشكلات بلاده ، رغم تحفظه الموروث ، واستشاره في حلها . فكان الريحاني يبدى آراءه بصراحة خشنة احيانا غير عابئة بمجاملات القصور . فقدّر العاهل الحجازي هذه الجرأة منه .

كثرت اقتراحات الامين بصدد توطيد السلم بين اسياد العرب تمهيداً لتعاونهم في سبيل نهضة عمرانية شاملة . وجاء بينها عقد معاهدة ثنائية مع الامام يحيى ، عاهل اليمن ، توطئة لمعاهدة تشمل ملوك الجزيرة كافة . رضي السلطان عن هذا الرأي شرط ان يعترف به الامام اولا كملك على العرب فبقي المشروع مشروعاً .

بعد ان اتم الرحالة المصلح مهمته لدى الحسين شاء ان يزور مكة المكرمة . لكن رغبته هذه ، وحدها ، لم تتحقق . عندئذ حول وجهه شطر اليمن ، هو في ثياب افرنجية وعقال يحمل جوازاً اميركياً ورفيقه قسطنطين في بزة ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . ولما

وصلا الى عدن استقبلها على الرصيف ضابط انكليزي ورافقها الى مقر الحاكم المدني والعسكري الذي نصح لهما بأن يقلعا عن فكرتهما «لأن السفر الى صنعاء محفوف بالآخطار خصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين، فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود» . بيد ان اميناً وقسطنطين ، وقد ألفا التعرض للآخطار ، ما ترددا في مواصلة الطريق .

ابطأ ورود جواب الامام فخشي الزائر ان عاقبة الابطاء وتوجهها ، في اثناء الانتظار، الى لحج يزوران سلطانها عبدالكريم فضل ويطلعان على شؤونها واحوال شعبها . وما هي ايام حتى بلغتها البرقية المنتظرة ترحب بالزيارة .

قبل انبلاج الفجر ركبا سيارة صغيرة وخرجا من لحج يبغيان الدكيم التي كانت يومئذ حدود تلك السلطنة شمالا وكانت الحملة قد سبقتهما اليها ومعها الحرس يركبون الهجن فوصلوا عند الغروب الى قصر السلطان علي بن مانع سلطان الحواشب ، في المسيمير ، فباتا ليلتهما في بلاطه وخرجا عند الصباح يقصدان الى صنعاء . وفي الطريق كانا سؤالاً بحسبهما ، سؤالاً حياً متحرراً يجيئهما اشباع الامام مادحين ، واعدائهم قادحين فضلا عن الفلاحين والجنود وقد عضهم البؤس فيجيئون شاكين ، متبرعين همساً بما كانا يبغيان من معلومات وثيقة .

وفي الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ بلغا عاصمة اليمن بعد مسيرة اسبوعين كاملين وعندهما خيرات من اخبارها واخبار الزبود . فاستقبلها الامام يحيى بحفاوة واخذ يستكشفها الغاية البعيدة التي يرميان اليها ، فلما اطمأن الى حسن نيتها والى رغبتها الاكيدة في خدمة العرب وتوحيد كلمتهم ، انفتح اليها واطلعتها على تصاميمه السياسية والعمرانية مستشيراً .

راح الامين يقنع الامام بفائدة عقد معاهدة مع الحسين وابن سعود تحقيقاً للاستقرار السياسي في بلاد العرب وقطعاً لداير الدسائس الاجنبية وبفائدة فتح اليمن للتجارة الدولية ونشر الثقافة والصناعة الحديثة فيها . وبعد اخذ ورد طويلين اقتنع جلالته بضرورة عقد المعاهدة الولاية مع الحجاز فكتب الامين نصها بيده وارسل نسخة عنها الى الحسين مع رفيقه قسطنطين . وبقي وحده في اليمن يطلع على طبيعتها ومواردها وعادات اهليها ومستوى رقيهم الاجتماعي ليدون عنها مذكراته في المساء . اوليس « من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف »^١ . وقد روى بعض انطباعاته عن تلك البلاد الى صديق حميم^٢ قال :

١ ملوك العرب ٢ الى داود بركات

« حضرة الامام يقضي بين الناس في الساحة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون . وفي البلد يتمشى القرن السابع وقد تجسد في ابناء هذا الزمان ، زيود هذه الجبال . فتراه في اثوابهم المنيلة ، ومآكلهم المبسطة وبيوتهم العالية وعاداتهم الغريبة ، ولغتهم الفصيحة العجيبة عندما تفهم (سرباء = سير البرق) وبقينهم البسيط ، وعقيدتهم القديمة ، وتقاليدهم وتعصبهم ونفورهم من الغريب . ترى القرن السابع حياً فيها كلها . حياً للنظر وحياً للسمع وحياً للبصيرة . نعم انهم لا يزالون يعتقدون في هذه الجبال بسطحية الأرض وألوهية الحسن والحسين ولا علم لهم بالاطباء . وطالت اقامة الامين في صنعاء فلما عول على الرحيل عز عليه ان يترك الامام ولا يحفظ شيئاً من ملاحه ، غير الذكرى والخيال ، لأنه حظر تصويره ، فاستعان بالقليل مما عنده من فن التصوير واغتتم الفرصة ذات ليلة كان في ديوانه وكان الامام يشغل فدرس وجهه ورسم ، عندما عاد الى المنزل ، ما حفظ منه ، فجاء الرسم صادقاً بشهادة من عرف الامام ١ .

وانتقل الريجاني الى الحديدة فزار حاكمها ، السيد الادريسي وباحته في عقد معاهدة رباعية بينه وبين الامام يحيى والحسين وابن سعود توطيداً

١ ملوك العرب - انها الصورة الوحيدة للامام

للسلام وتدعيا لمالكهم فاستصوب الحاكم الرأي وأعلن عن عزمه على التنفيذ .

وعاد الى الحج فكتب منها الى السلطان عبد العزيز يستأذنه بزيارة بلاده شارحاً له غايات رحلته فأبطأ الجواب . ولما عيل صبر الامين مضي الى عدن واقام فيها « تحت سرادق القیظ في فم البركان بين اشباح الجدري والحمى ستة اسابيع ينتظر اذنأ بالسفر الى العراق »^١ . فلما ورده الاذن بالسفر انتقل من عدن الى بمباي ليقصد منها الى البصرة .

وفي المدينة الهندية قضى اسبوع قلق احس خلاله بشبح الحيبة . كيف لا والسياسة الاجنبية والتعصب والمناخ السيء والامراض تواطأت كلها على عرقة مسعاه . لكن ايمانه بالرسالة التي نذر نفسه لها ما كان ليستضعف امام الصعاب .

رأى الريحاني في بومباي مشهداً اثر في نفسه تأثيراً عميقاً ضاعف همته على الجهاد الرسولي ، رأى « الهندوس ، كبارهم وصغارهم ، اغنياءهم وفقراءهم ، رجالهم ونساءهم ، يلبسون الثياب البيضاء المصنوعة من القطن المزروع في الهند ، المغزول في الهند ، المنسوج في الهند »^٢ وما كان قبل

١ ملوك العرب

٢ القوميات ١ ص ١٨٧

ذلك يعرف غير ما كان يقرأه في الصحف عن النهضة التي قام بها غاندي
لخلاص بلاده من عبودية الاجانب . كان يظنها نهضة فكرية فقط تنحصر
بالزعيم وبعض المتحمسين من اتباعه فألفاها نهضة جذرية نفذت الى صميم
الشعب .

ومضى الامين الى العراق ومكث فيه نحواً من شهر اصابته الحمى
خلاله مرات ثلاثاً . وهو في ذلك حمل البريد اليه جواب العاهل السعودي
بالترحاب ، فركب الباخرة الى البحرين ثم الى النفود واعتذر عن التأخير
فأجاب السلطان عبد العزيز : « اما نحن فما ترددنا ولا ابطأنا في الجواب .
وكيف نرد من يبغى زيارتنا وهو من صميم العرب . قالوا لنا انك اميركي
جئت تبشر بالدين المسيحي في البلاد العربية ، وقالوا انك تمثل بعض
الشركات وجئت تبغى الامتيازات . وقالوا انك قادم من الحجاز وانك
شريفى تسعى لتحقيق دعوة الشريف وقالوا غير ذلك ، فقلنا اذا كان في
الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه ، واذا كان فيه ما ينفع فنعرف
ايضاً كيف ننتفع ونحن نعلم يا حضرة الاستاذ بمهتك بارك الله فيك »^١ .
فأخبره الأمين بالمقاصد الثلاثة من رحلته قال : « وقد تم الاول

بشاهدتكم ، وسيتم الثاني بما سأكتب ان شاء الله فيما شاهدت . اما الثالث
فلا يتم إلا بمساعدة ابن سعود . واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية
لا تتحقق إلا باجتماع امراء العرب كلهم بالتعاون اولا والتفاهم . فهم
اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم ^١ .
جرت احاديث متنوعة بينها حول الرئيس ولسون واميركة ^٢ والقضية
العربية والاتحاد فأدهشت بلاغة السلطان وحدة ذكائه الاديب اللبناني
فصوره باعجاب قال : « السلطان عبد العزيز طويل القامة ، مفتول الساعد
شديد العصب ، متناسق الاعضاء . وهو اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو
لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضه على الطريقة الوهابية . له من السنين
سبع واربعون . يلبس في الصيف اثواباً من الكتان بيضاء ، وفي ايام
الشتاء تنانير من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو ينتعل ويتطيب ويحمل
عصا من الشوحط طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه ، على تشكيل
كلماته ، اذا صحت الاستعارة ، وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من
الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغة وله عينان

١ ملوك العرب .

٢ كان الريحاني اول من فتح العيون على امكانيات النفط الجبارة في بلاد
العرب .

عسليتان تنيران اما كن العطف واللفظ ساعة الرضى وتضرمان في كلامه
ساعة الغيظ نار الغضا وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة
الثانية كالحديد يتقاص فيشتد فهو اذ ذاك كالنصل حداثاً ومضاء ... اجل
ان ابن السعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير فيذهب العطف من نظريه
ولون الورد من شففيه ثم في افتراره يستحيل النور ناراً بيضاء فهو اذ ذاك
رهيب « ١ » .

اقام الريحاني في نجد ستة اسابيع فكان السلطان يزوره في منزله
كل ليلة فيباحثه في مواضيع شتى نجدية وعربية عامة . لكن الامين
ما اكتفى بالاتصال بابن سعود بل اجتمع ايضاً الى كل ذي شأن والى
عامه الشعب يطلع على احوال كل منهم وشؤونهم ونزعاته وشجونهم .
ولما استكمل جولاته ودرسه ، ودع ابن سعود حاملاً اشد التفاؤل
بنجاح سعيه ، وتوجه الى الكويت فأنزله حاكمها الشيخ احمد الجابر آل
صباح في ضيافته أياماً وباحثه في علاقات المشيخة بالعراق ونجد ، وهناك
درس امين عن كتب تجارة الاواؤ وصناعة السفن . ثم انتقل الى البحرين
وحل في قصر شيخها احمد بن عيسى فسأله هل يلبي دعوة الحسين الى اجتماع

في مكة لبحث شؤون العرب فأجاب : « اذا لبي سلطان نجد الدعوة فاننا نلبيها » . وفي استقصائه عن موارد الثروة في تلك المشيخة تحقق له ان مغاص اللؤلؤ هناك هو الاول من نوعه في العالم كما تحقق له ان ثمة ينابيع من الذهب الاسود دفينة في جميع البلدان التي زارها يجب ان تستثمر وينفق ريعها على تصنيع هذه الاقطار وتحضير اهلها وتثقيفهم .

واطمأن امين الى النتائج التي توصل اليها فتوجه الى عدن ليجهر منها الى العراق فلما وصل الى بباي التي لا بد من التعرّيج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهند لقي في القنصلية الاميركية كتاباً من الديوان الملكي في بغداد ينطوي على الترحيب بمقدمه فسافر الى بلاد الرافدين للمرة الثانية والتعب يكاد يستنفد منه الحيوية ورباطة الجأش .

كان مجرد النظر الى ثمار الحنظل يبرد من ظمأه يوم كان في البادية ...

كان يسير اياماً في تلك الفيافي الذهبية ، الخالية من كل اخضر ، فلا يرى غير ازرقاق السماء ينعكس في اصفرار الدهناء ، فيتوهج في العيون ، ويجف في الحياشيم واللهوات فيطلب الماء فيجده في القرب آسناً ، كريحه الرائحة .

كان يتناول الحنظلة الصفراء ويتأملها فيتخيل امامه لبنان ومن خلاله بستاناً من الليمون وسلسيلاً من المياه ، وظلالاً عطرة منعشة فيغمض

عينيه ويقيم فيها وهو على ظهر الذلول ، ساعات تنسيه البادية والظماً ١ .

في العراق

من بمباي الى البصرة ابجر الريحاني هائماً ، شارد اللب ، لا يعلم ما حل
بزوجه وقد انقطعت عنه اخبارها منذ نيف وسنة ، ولا ما حل بأهله في
الفريكة ، واخبارهم ما كانت تصل اليه الا نادراً .

وحالما بلغ البصرة بادر الى الوكالة البريطانية فيها واستعلم عن برتا فلم
يعرف عنها شيئاً فازداد قلقه فاستدعى حوذاً « ساق جواده الاعرج يجر
عربة مكسرة فيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني » ٢ . فلما انتهى الى
محطة السكة الحديدية استقل القطار الى بغداد حيث زار عاهل العراق .
اكرم فيصل الاول وفادة الامين ، وكان قد بلغه الكثير عن نشاطه
في سبيل نهضة العرب ، وافسح له ان يحدثه بكل شأن وفي كل موضوع .
وقد استأثرت القضية العربية بالأهم من الاحاديث فأبدى السيد الهاشمي
رغبة صادقة في التعاون واقترانه اسياد العرب . فتنفس الامين ارتياحاً
ونسي تعب شأنه شأن المزارع يجني ثماراً رواها من ماء الصميم .

ما قصر الريحاني زيارته العراقية على البلاط الملكي بل وسع نطاقها
فاذا هو يتنقل بين وزير ومدير واديب وعامل ويستطلع ويلاحظ ويدون .

تكاثرت حفلات التكريم التي نظمت على شرفه^١ حتى كادت ترهقه
اكثر من الحدو على ظهور العيس في القفر الفسيح .

وكان لا بد للرحلة الشاقسة ان تنتهي فودع الامين العراق وسائر
الاقطار العربية وهو يخاطبها باسم الحرية رائده الاول فيقول :

« هي الحرية جاءت تزور البلاد العربية وتزرع بذورها الطيبة الصفية .
ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض ، وبكت في نهامة بكاء اليأس .
وضحكت ثم تأوهت في اليمن وجلست تستريح في العراق ... الحرية
تخاطبكم ايها الاسياد ... ان في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الامة
والكلمة لكم فهل انتم بها ناطقون . الكلمة (الاتحاد) فهل انتم في امر
واحد متحدون ... ان حرمة الامة لا تعزز بغير العلم الصحيح ، فهل
من معاهد للعلم تشيدون ؟ اذا كنتم تفعلون فاني الحرية اقيم بينكم
وابشركم بمستقبل مجيد وإلا فسأعود الى اقصى البلاد وألبس على بلادكم
العزيزة الحداد » .

١ تتالت سلسلة الحفلات التكريمية في دار المعلمين وسقر الحزب العراقي الحر ،
والمعهد العلمي ، ومكتبة الهلال ، ومنتدى التهذيب . وكان من ابرر من تكلم فيها
معروف الرصافي ، وجميل الزهاوي وقد جمع الخطب رفائيل بطي في كتاب مستقل
وعلق عليها .

وقبل ان يغادر الامين العراق زار كربلاء والنجف ثم عاد الى
الفريكة راضياً عن عمله بعد اربعة أشهر قضاها في تنقل مستمر ، وبحث
محموم وتعب مرهق في خدمة العرب وتحقيقاً لنهضتهم واتحادهم . عاد من
الحجاز الذي لا ترى زهرة فيه ولا اخضر في بوايه الى لبنان الذي لا يزول
اخضراره ولا تذبل ازهاره ١ .

☆

قبل امين الريحاني زار كثيرون من السياسيين والجنود والعلماء
الغربيين بلاد العرب - فقد طاف بر كهاردت وبورتون اطراف الحجاز
وجال دوطي في انحاء الجزيرة الوسطى والغربية واجتاز فلي الصحراء
من خليج العجم الى البحر الاحمر ، انما قل من كانت له مثله الفرص
المؤاتية للتعرف الصحيح بتلك البلاد واحوالها ٢ .

« لقد اختلفت غاية الامين كثيراً من غايات الاعلام الذين تقدموه
في هذه الرحلة . فبلاد العرب لم تكن في عينه نجداً يجب استكشافه
وملوكتها تحفأ حية مخبئة وراء حواجز يتخطاها المغامرون ثم يعودون
مباهين بما عرفوا من مجاهلها . بل كانت بلاد بشر احياء يتكلمون اللغة
التي تكلمها منذ صغره ، بلاداً لم يكن يجمل تقاليدها ، بلاداً أراد ان

١ من رسالة الى داود بركات في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٥ .

٢ عن مجلة آسيا الاميركية المصورة .

تغذي مواردها الحيوية مدنية عربية قوية عوض ان تعزز المنازعات
والدسائس بين العشائر « حتى يفني بعضها بعضاً »^١ .

اراد الريحاني ، من رحلته هذه ، ان يجمع شمل العرب الشتيت
ويوحد كلمتهم ، ويعلي شأنهم ويحسر عن وجوه اسيادهم
« تلك الأقنعة الاسطورية التي حجبتهن عن العيون »^٢ فراح يركز
بالثقافة والمدنية والعمران والصلح والانفتاح على المعمور فكان خير
رسول لنهضتهم الحديثة في جميع الحقول وافعل العاملين لها واخلصهم .
كان رسول سلم في البلاد العربية يبشر بالعلم والتمدن لا بالوحدة العربية
وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز^٣ ، انه ما جاء ينصر جهلامسليحاً
ولا ان يعزز تعصباً .

ويؤوب الامين بلحيته وعباءته ، مطمئناً ، الى واديه حاملاً اثمن
الهدايا والذكريات ليؤدي الى العالم حساباً ضافياً عن رحلته العجيبة .

في الفريكة :

رجع الامين سالماً نشيطاً الى الفريكة ، الى حضن امه ، بعد غيبة

١ عن اليزابت مككم من مقال بعنوان « صوت عربي » .

٢ نظير زيتون - عدد الرسالة الخاص بالريحاني آب وايلول سنة ١٩٥٦ .

٣ ملوك العرب .

ناهزت السنين العشر فاحتفى اصدقائه الادهباء بعودته في حفلة تليق به ^١
افسحت له ان يفرغ في قصيدة نثرية فيض حنينه الى الوادي حيث رقد
الشطرنج الاعز من ماضيه ^٢ .

« في منعطف الوادي حيث اناخ ، وقلبه يحدثه بالرحيل ، سلم العرزال
عليه ، ورحب السنونو به ، واستبشر الصنوبر بايابه . وبادر الى البيت
« فاذا هو كالطلل وحشة وسكوناً . فها الشوك قد امتد الى اسكفة
الباب . وها العشب قد نبت خلال الاحجار في الجدران . بيت ابكم ،
اصم ، لا كوة مفتوحة فيه تسمع الصوت ، ولا شق في الباب يحيي
الراجع المشتاق » ^٣ .

إلا ان صوتاً خافتاً ناداه « تقبرني يا ابني » ما لبث ان بدل جوه
القاتم كما يفعل السحر . لقد مسحت امه دمع الفرح السخي عن عينيها
وتطلعتة وقبلته بلحمه ودمه هذه المرة وكانت قد يئست من ان تراه
قبل الغروب .

في الفريكة حاول صاحبنا ان ينقطع عن مشاغل الدنيا فيعيش آمناً ،

١ اقيمت على مسرح الكورسال في بيروت وتكلم فيها داود نحول ، حسن
الإسیر ، نجلا أبي اللمع ، فيلكس فارس ، ماري بوني ، وديع عقل ومعروف الرصافي ،

٢ العود الى الوادي .

٣ هتاف الوادي ١١٥

خلى البال . ولكن ابن المفر ، فقد طوقته الوسوس من كل صوب ،
حسبه الهم الذي خلفته برتا ، عروس آماله بالامس . ماذا حل بها في غيابه
ولماذا انقطعت اخبارها عنه ؟ هل دهتها كارثة ما ؟ لابل هو كبرياء المرأة
يطعن في صميمه فيعلن الانتقام . ألم يؤثر هو رسالته عليها فهجرها غير آبه
لاعتراضها ؟ فلم لا تبادله المثل فتقطع معه كل صلة ... انها لا بد في اميركة
منصرفه الى فنها تجتر غيظها عليه .

وجه اليها كتاباً قاسي اللهجة يعاتب فيه مرة ، ويؤنب مرة ، ويشور
مرات فورد جواب اشد قسوة بعد حين ثم كانت بينهما القطيعة . عقليتان
مختلفتان تصطدمان : عقلية شرقي يأبى خروج المرأة على سلطة الرجل ،
وعقلية غربية تدين بالمساواة المطلقة . فأمين وانت قضى زهرة العمر في
اميركة واقتبس جل عاداتها بقي محافظاً^١ ، فيما عني المرأة ، يريد خضوعها
لارادة الزوج .

١ كتب الى سليم دريان من لندن في تموز سنة ١٩١٠ يقول « رأيت مواكب
السيدات يسرن مطالبات بحقوقهن السياسية ، وجلهن من العوانس ، فقال احـد
المشاهدين : هذا موكب يفوق جنازة الملك ، وهو جنازة والله . هو جنازة المرأة
في هذه البلاد . وعدت الى غرفتي ضاحكاً باكياً نادياً حظ الانثى التي تشقى في بيتها
فتطلب السعادة خارج البيت ولو في احوال السياسة . ورددت قول الفيلسوف
نيتشه : « المرأة لغز لا يحله الا الحبلى » .

لجأ الرهباني إلى العزلة المطلقة محاولاً أن يتناسى ماضيه ، بل شاء التنسك الرهباني على ما فيه من صرامة وقد قال يومئذ « في نيتي ان ادخل الدير بعد اسبوعين ترويضاً للروح ، والرهبان يسمونها رياضة روحية ، فأقيم هناك في عزلة الرهبان ، وفي ظل اعدائي الكهان ، واكون ولو اسبوعاً واحداً مسيحياً تقياً فأحب اعدائي وآكل معهم وانام تحت سقفهم واصلي صلاتي في كنيستهم »^١ .

بيد ان الأمين ان لم يذهب إلى الدير ، كما قال ، فقد تنسك في صومعته وانقطع الى المذكرات التي دونها في رحلته بعيد النظر فيها وينقح ويكتب ليخرجها فيما بعد اسفاراً حية ، فريدة الفائدة ، فذة الاسلوب .

كان ينهض عند بزوغ الفجر فيستحم بالماء البارد ثم يرتدي ملابسه كما لو كان على سفر ويجلس الى مكتبه الانيق الترتيب الذي تتوسطه جمجمة ناطقة بحقارة الانسان الى ان يسمع جرس الكنيسة المجاور يدعو المؤمنين الى الصلاة فيهرول الى والدته النائمة في غرفة ملاصقة ، وقد اثقل العمر سمعها ، فيوقظها ويعود الى عمله حتي تدق الساعة الثامنة موعد تروييقته الخفيفة . وبعد استراحة قصيرة يعود الى مكتبه فيلزمه حتى الغداء عندما

١ من رسالة الى منليم سر كيس .

يتوسط ام امين وسعدى يداعبها وهويأ كل ، هذا اذا خلت غرفة الطعام من الضيوف وقلما خلت ^١ . وبعد الغداء كان يتمدد ساعة على كرسي من القش ، عريض الجانبين ، فوق شرفة تطل على الوادي قبالة صنين . ثم يعود الى قلمه حتى الساعة الخامسة ساعة الشاي على الطريقة الاميركية وبعدها يشعل غليونه ويمضي الى الاسطبل حاملاً في جيبه قطعاً من السكر الى « نورا » فيلقمها اياها ويمسح بمنديله دمعها ثم يستوي على ظهرها ويخرج الى الغابة المجاورة .

وبعد العشاء كان ينصرف الى تلاوة ما ورده من رسائل الادباء والخلان حتى اذا اعياه الجهد العقلي المستمر جعل يلعب « الباصرة » مع ام امين وسعدى او يحدثها بمغامراته .

حياة نظامية منضبطة هادئة ، في الظاهر ، ساعدته كثيراً في تحقيق مشروعاته الكتابية ، فما انقضى العام على رجوعه من الجزيرة حتى كان قد جاز شوطاً بعيداً في كتابه « ملوك العوب » ونقح عدداً من المقالات كان قد كتبها في لبنان وفي اميركة ونشرها في جزئين جديدين من « الريحانيات » .

١ كانت سعدى تستعمل الزائرين قبل الظهر وتسنبغيهم على الغداء لان اميناً كان يكرس صباحه للنتاج الفكري .

كان الاقبال على قراءة هذين الجزئين عادياً ، رغم صفاء الديباجة فيها
ونخلو التراكيب من الرطانة . ذلك ان القارئ العربي الواعي بعد
الحرب الكونية الاولى انفتح على الثقافة الغربية انفتاحاً نهياً فقيوت فيه
الروح النقدية واصبح صعب الاختيار لا يرضى إلا عن النتائج
الاصيل .

تقبل الامين الحبية المفاجئة بصبر وانصرف الى « ملوك العرب »
يشبعه درساً وتحليلاً .

وصدر الكتاب المنتظر في مجلدين ضخمين^١ تخاللتها الحوارط والرسوم
وقد اوضح المؤلف ، في مقدمته ، اهم الاسباب التي حدثت على القيام
برحلته الى البادية واعلن الاهداف التي رام تحقيقها .

انتشر هذا الكتاب بسرعة غربية بين قراء العربية فترجم بعضه الى
غير لغة وتناولته امهات الصحف بالنقد والتعليق والثناء . لقد ملأ فراغاً
كبيراً في فجر النهضة العربية فاثار الهمم المتقاعسة موجهاً نحو التحرر
الناجز وحسر عن الحقائق غشاء الوهم . وكأث هذا البحث ، على
عظمه ، لم يستنفد مادة الأمين فانصرف الى اعداد غير بحوث في العربية

١ صدر سنة ١٩٢٤ الجزء الاول . ٣٩٠ صفحة والثاني ٤٤٦ .

والانكليزية يودعها ما بقي في حافظته ومذكراته من خواطر وتأملات
وصور واحاديث عن البلاد العربية في واقعها ومرتبجاها .

جهد مستمر

كثيراً ما دعي الريحاني الى لقاء محاضرات واحاديث عن رحلته
الاخيرة في المنتديات والمعاهد في بيروت وفي غير مدينة قلى ما وسعه
ان يلبي وتكلم باعتزاز عن شعب احبه وبلاد توخى لها كل تقدم .

وناداه الواجب الى جده يوم استفحل النزاع بين الحجازيين والوهابيين
فمضى يتوسط بين العاهلين صديقيه لحل الخصام . ولما عاهداه على تحقيق
مسعاه رجع مطمئناً الى الفريكة يعد كتابه « نجد الحديث » .

كان عليه ان يدفع للشهرة جزيتها من وقته ، فكأي من اديب حج
اليه من هذا القطر العربي او ذاك سائلاً رأيه في مخطوطة او طالباً اليه ان
يكتب توطئة لها تشجيعاً على النشر فأبدى وجهة نظره صريحة لبقه لا يقف
عند اعتبار غير قيمة الاثر فأجفلت هذه الجرأة طواويس الادب وراقت
صفوة الكتاب وهو في كلا الحالين يقول كلمته ويمشي .

تم « تاريخ نجد الحديث » فنشره سنة ١٩٢٧ وما كان اكبابه عليه
ليصرفه عن التوجيه السياسي فقلما انتظمت حلقة رصينة الا وسمع فيها
صوته سواء في سوريا او في فلسطين او في لبنان . انه ابداً في ركاب

الواجب القومي الانساني انى دعاه .

*

لكم آلم الامين التأخر الفاضح الذي كان يلمسه في المجتمع الشرقي .
فالشرقيون ، بحكم طبيعتهم الداعية الى التأمل والاحلام ، وبحكم عقائدهم
الدينية والفلسفية سلبيون ، متواكلون في اكثرهم ، تسوقهم الاقدار .
لقد رأهم يعيشون على اجماد اسلافهم ، غافلين عن الحاضر والغد .

كان من البديهي ان يثور الامين وهو التقدمي المتغرب على هذه
العقلية . لقد آمن بقوة الارادة لكنه لم يعها محض رجاء بل عيشاً مسبقاً
للقائع وسعياً مستمراً لتحقيقها لذلك نادى بالعمل الايجابي وبالاتكال
على النفس في معظم احاديثه ومحاوراته ، في تلك المرحلة ، وقد وضع
عهد ذاك كتيباً اسماء « النكبات »^١ من وحي هذا الواقع اثار سخط
التمسكين بالاوهام المعنكية ، القانعين بالصدى ، فهاجموا الريحاني ونسبوا
اليه التغرض واتهموه بخدمة الاجانب على حساب مواطنيه . الا ان
الامين ما كان ليأبه لهذه الشائعات فرصيده للتاريخ اقوى من ان تزعه
الشائعات والتهم .

١ ربما كان رداً على « خطط الشام » لمحمد كرد علي .

حنين الى نيويورك :

طال غياب الريحاني عن الولايات المتحدة وفيها رهط من الرفاق
والاحباب والقراء فضلا عن الاجواء الثقافية والفنية العزيزة عليه ، فعزم
على الرجوع اليها . كأنما الانسان كالعشبة تمتد جذوره في كل تربة يطيب
له فيها المناخ .

وعاد السندباد اللبناني يحمل في جعبته تصاميم سلسلة كتب عن رحلته
الى البادية يعرف فيها العالم تعريفاً صحيحاً بالعرب وبلادهم وحقيقة
وضعهم .

وفي الطريق عرج الى لندن ونشر فيها كتابه « ابن سعود وشعبه
وبلاده »^١ وكتب عدداً من المقالات في « التايمس » حول المشكلة اليمنية
النجدية .

بعد وصوله الى نيويورك طبع كتابه « حول الشواطىء العربية »
ضمنه انطباعاته عن زيارته للحجاز وعسير والكويت والبحرين وعمان
وعمان ، وكتاباً آخر عنوانه « الصحراء العربية » وصف فيه رحلته من
صنعاء الى الحديدة .

١ بالانكليزية .

ما عرف الامين ، كل حياته ، للحقد معنى . كان يشور ان مس في
كرامته او مبادئه ثم لا يلبث ان يهدأ وقد تناسى كل شيء . فالقلوب
الكبيرة لا تحسن ضيافة الضعيفة ...

مر امام المنزل القديم حيث قضى سنوات وزوجه وترك بعضاً من
وجوده فخطرت له برقا مشيقة ، رشيقة ، ترفل بثوبها الارجواني كما رآها
اول مرة فازدحمت احداث ماضيه في ذاكرته كالهالة حول شخصها
فساوره وجوم وجعل يهمس في اذن نفسه : « هنا جلست تسامرني
وتربني بعض رسومها ، وهناك في الحديقة كانت تقطف لي ازهار
الربيع ، وهناك كانت تتأمل وتستوحي مادة فنها . وشاقه الرجوع
الى العيش الهادىء في كنف من احب ولا سيما بعد ان زال سبب النفور ،
فأبدى رغبته الى صديق حميم ^١ ، حاول عبثاً ان يحققها له . لقد ابت برقا
ان تعود الى الحظيرة ... فقيد الزواج ارهاقها ، وجرح كبرياتها لم يندمل .
كان قلبها ، على ما يظهر ، كالزجاج الذي لا يجبر كسره حتى في بلاد
الغرائب ... الا انها قبلت ان تكون صديقة لزوجها كما لو لم يربط بينها

اي عقد . وتم بالفعل الطلاق المدني بينهما وعاشا رفيقين يجمع بينهما وشج
الفن ^١ وتفرق بينهما العقلية في عمق انماقها . وقد عبر عن هذا الاختلاف
في رسالة وجهها الى صديقه فيليكس فارس جاء فيها :

« زوجتي اميركية احبها واعتبرها واعزها جيداً ، ولكنني تزوجتها
ولم اتزوج قومها ولا بلادها . وهي كذلك تحبني وتعتبرني وتعزني
ولكنها لم تتزوج قومي ولا بلادي » .

ونزل الامين « العازب » في نادي المؤلفين حيث عاش في جو متحرر
من تبعات الحياة لاءم اعصابه المتعبة وانساه وحشته الى حد ما . فوثق
اتصاله بالحركة الفكرية في العالم وارخى لقلمه العنان .

فلسطين

حوالي سنة ١٩٣٠ اخذت القضية الفلسطينية تطرح جدياً على بساط
البحث . الصهيونيون يصرون على تحقيق وعد بلفور والعرب يأبون
التخلي عن « ارض الميعاد » أياً كان الثمن ، والدول الكبرى وقد
اعتمتها المصالح عن رؤية الحق الصراح ، لا تأبه للجريمة الكبرى قتها في
وضح النهار ...

١ لم تنجز معاملاته القانونية الا سنة ١٩٣٩ وفد جاءت برقاً الى لبنان سنة
١٩٥٣ وزارت آل الريحاني في الفريكة وترحت على الامين فوق قبره .

اما الريحاني الاديب الملتزم ، فما اكتفى بالمرآثي الرومنطيقية والتفجع قبل حلول المصيبة ، بل مضى يعمل على اجتناب الشر ، يبين تارة حق العرب الاكيد بوطن من اغلى مواطنهم ، ويظهر تارة مدى خطر التوسع الصهيوني في الشرقيين الادنى والاوسط . وقد طاف في الولايات المتحدة رسولا خطيباً لا يكل . وفي هذه الغضون كتب اليه الحاج امين الحسيني المفتي الاكبر ، يسأله ان يشترك في الوفد الذاهب الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فاعتذر بقوله : « عدت اليوم من سياحتي الخطابية . شكر لكم ثقتكم بانتدائي لعضوية الوفد الفلسطيني . كنت اود ان اقبل فيما لو تمكنت من القيام بنفقات السفر ، الا اني غير قادر بهذه الايام وانا الا اقبل مالا من احزاب سياسية جزاء خدماتي للعرب » . إلا انه رافق من بعيد قريب مراحل المفاوضات واعلن رأيه غير مرة حول تطوراتها في امهات الصحف الاميركية .

غير ان القضية الفلسطينية ، على خطورتها ، ما انست الريحاني اصدقاءه من لبنانيين واميركيين فكان يعود اليهم مثقلاً بالمتاعب شأنه شأن المركب الشراعي في الحُضَم يفتش عن مرفأ .

ولرب مرفأ آمن كمنت فيه عاصفة ، فالجوالهاديء ، جو الجالية اللبنانية ، الذي كان يلوذ به الريحاني تعكر في ربيع سنة ١٩٣١ فجبران ، القطب

الذي كان يشيع الانس حوله ، عليل يجتضر .

هرع الامين ^١ الى مستشفى سان فنسنت يعود صديقه بالامس رغم غيمة الفتور التي اجتاحت علاقتها ، فألقى البريق في ناظريه قد خبا والابتسامة قد تقلصت على غير عودة فوقف مع نفر من صحب جبران يتقبل التعازي .

واضطرتة المشكلة الفلسطينية الى الرجوع الى الشرق ليدرس عناصرها عن كذب ويتصل بجمهرة العاملين لها فاحتفل الحلف السوري في بروكلن بدعاه واهدى اليه كأساً من الفضة وجائزة نقدية فقبل الكأس ورفض المال وركب البحر الى لبنان وكان وفات صاحب « النبي » قد وصل الى بيروت في ٢١ آب سنة ١٩٢١ فألقى قصيدة ناجى فيها طيف « ذلك الذي حمل الارث القديم الى ما وراء البحار ... وظل يضطرب لرنات العود وغنات القصب » . وعاهده بأنه « من ظلال الصنوبر الذي سيغمر ضريحه في الفريكة سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، الى ضريحه في ظلال الارز » .

١ رافقه اخوه البرت في تلك الزيارة .

ما كان امين المشيع بروح الثورة الفرنسية ليرضى بقيد الانتداب يجد من حرية بني قومه ومن انطلاقيهم الخلاق . لقد عمل بالامس البعيد على تحطيم النير العثماني يوم كانت الاعناق ارخص السلع فما خشي عاقبة . اتراد يخشى الاضطهاد في عهد الانتداب ؟ انه لا يكره فرنسا وهو تلميذ ثورتها وبعض مفكرها ، وهو من دعا الى التطوع في جيشها لمحاربة الاتراك في الحرب الكونية الاولى ، لكنه كره اساليب بعض ممثليها ابان الانتداب وجاهر بكرهه . حذر من مغبة هذه المجاهرة فما ارعوى . ولما دعت جمعية التضامن الادبي في بيروت للكلام ربيع سنة ١٩٣٣ ، القى كلمة قنبلة بحضور ممثل المفوض السامي قارن فيها بين اول وقفه وقفها في بيروت ايام عبد الحميد وبين وقفته تلك في عهد ديمارتيل السعيد فلم يجد تغييراً يذكر بين الوقفتين الا اذا حسب الرجوع الى الوراء تغييراً رغم الانقلابات الخطيرة في اوضاع العالم واحواله . « فمن عهد عبد الحميد قد انتقلنا الى عهد البعل . من ظلم ظاهر الى ظلم خفي . من ظلم مختل الى ظلم منظم . من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتيقيها الناس الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات . »

وما كاد يخرج من بوابة « التياترو الكبير » بعد هذه الخطبة النارية ،

حتى اعتقله رجال الأمن وصدرت الاوامر بنفيه عن لبنان فحمل حقيبته
وفيه تصميم « فيصل الاول » وحل ضيفاً على الملك غازي في بغداد .
وقبل الرحيل وجه كتاباً الى جريدة « النداء » ودع فيه الاصحاب وغير
الاصحاب جاء فيه « ما احزنني مما كان لهذه الخطبة من النتائج الاجتماعية
والسياسية غير غيرة بعض الناس ، اخواني في هذه البلاد ، على ما يظنونه
مصلحة الفرنسيين وكرامتهم فصحت فيهم الكلمة الفرنسية الماثورة :
« ملكيون اكثر من الملك » وقد امعنوا في نزعتهم هذه فتجاوزوا
التأويل والتشويه لما قلت الى الوشيان والاغراء فقالوا اني فضلت عهد عبد
الحميد على العهد الحاضر (والمقابلة بين العهدين غير التفضيل) وقالوا اني
عدو الفرنسيين والانتداب وعدو السلطة المحترمة كلها . وما انا بعد عدو
لغير الجهل والخوف والتعصب في الناس ولغير الظلم والاستئثار والفساد
في السیادات والاحكام ، انما انا عدو اعمال لا عدو رجال ... انه يحزنني
والله ان يكون بين هؤلاء من الاسباد والصعاليك من لا يهمهم غير خبز
يومهم وان جبل هذا الخبز بالتزلق والذل والخداع وبما ان داءهم في قلوبهم
كما هو في جيوبهم فاني اسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران .
واقام في العراق مكرماً يجمع المواد اللازمة لكتابه « فيصل الاول »
وينتظر الفرغ فأتاه مع شباط سنة ١٩٣٤ بعد تدخلات الحكومتين

البريطانية والاميركية لدى وزارة فرنسة الخارجية وبعد تهديد الجوالي اللبنانية والسورية في اميركة بمقاطعة النتاج الفرنسي .

وعاد « المجرم » من منفاه وهو على اشد ما يكون نقمة واعية على الانتداب والمنتدب لكنه قطع عهداً لأمه بالانصراف عن السياسة فلزم صومعته وداوم على السكوت ١ .

كانت تبيئه الدعوات الخطابية ومعها كلمة رجاء بأن يتجنب الموضوعين – البعبعين الخيفين – السياسة والدين (السلطة حظرت طرق هذين البابين) فقال مرة لأحدهم : « من يدعوني للخطابة ويقول لا سياسة ولا دين كمن يدعو الناس الى مأدبة لا خبز فيها ولا ماء » .

وانجز في تلك الفترة الصامته كتابه « فيصل الاول » فنشره . وقدم له برد على من اتهمه باضطراب لبنانيته قال : « يريب بعض الناس حبي للعرب وملوكهم واهتمامي الدائم بشؤونهم وقد انتقدني نفر من الكتاب فقالوا ان وطنك القريب لبنان لأحق باهتمامك من الوطن البعيد ... ولكنك مستحقاً مدماتهم كلها لو ان حبي للعرب افقدني ذرة من حبي للبنان » .

١ حلى معه خروفاً بالطائرة رمز السلام

حنين الى نيويورك :

طال غياب الريحاني عن الولايات المتحدة وفيها رهط من الرفاق
والاحباب والقراء فضلا عن الاجواء الثقافية والفنية العزيزة عليه ، فعزم
على الرجوع اليها . كأنما الانسان كالعشبة تمتد جذوره في كل تربة يطيب
له فيها المناخ .

وعاد السندباد اللبناني يحمل في جعبته تصاميم سلسلة كتب عن رحلته
الى البادية يعرف فيها العالم تعريفاً صحيحاً بالعرب وبلادهم وحقيقة
وضعهم .

وفي الطريق عرج الى لندن ونشر فيها كتابه « ابن سعود وشعبه
وبلاده »^١ وكتب عدداً من المقالات في « التايمس » حول المشكلة اليمنية
النجدية .

بعد وصوله الى نيويورك طبع كتابه « حول الشواطيء العربية »
ضمنه انطباعاته عن زيارته للحجاز وعسير والكويت والبحرين وعدن
وعمان ، وكتاباً آخر عنوانه « الصحراء العربية » وصف فيه رحلته من
صنعاء الى الحديدة .

١ بالانكليزية .

ما عرف الامين ، كل حياته ، للحقد معنى . كان يشور ان مس في كرامته او مبادئه ثم لا يلبث ان يهدأ وقد تناسى كل شيء . فالقلوب الكبيرة لا تحسن ضيافة الضغينة ...

مر امام المنزل القديم حيث قضى سنوات وزوجه وترك بعضاً من وجوده فخطرت له برتا مشيقة ، رشيقة ، ترفل بثوبها الارجواني كما رآها اول مرة فازدحمت احداث ماضيه في ذاكرته كالهالة حول شخصها فساوره وجوم وجعل يهمس في اذن نفسه : « هنا جلست تسامرني وتربني بعض رسومها ، وهناك في الحديقة كانت تقطف لي ازهار الربيع ، وهناك كانت تتأمل وتستوحي مادة فنها . وشاقه الرجوع الى العيش الهاديء في كنف من احب ولا سيما بعد ان زال سبب النفور ، فأبدى رغبته الى صديق حميم ^١ ، حاول عبثاً ان يحققها له . لقد ابت برتا ان تعود الى الحظيرة ... فقيد الزواج ارقها ، وجرح كبريائها لم يندمل . كان قلبها ، على ما يظهر ، كالزجاج الذي لا يجبر كسره حتى في بلاد الغرائب ... الا انها قبلت ان تكون صديقة لزوجها كما لو لم يربط بينهما

١ ابراهيم حتي

اي عقد . وتم بالفعل الطلاق المدني بينهما وعاشا رفيقين يجمع بينهما وشج
الفن ^١ وتفرق بينهما العقلية في عمق اعماقها . وقد عبر عن هذا الاختلاف
في رسالة وجهها الى صديقه فيليكس فارس جاء فيها :

« زوجتي اميركية احبها واعتبرها واعزها جيداً ، ولكنني تزوجتها
ولم اتزوج قومها ولا بلادها . وهي كذلك تحبني وتعتبرني وتعزني
ولكنها لم تتزوج قومي ولا بلادي » .

ونزل الامين « العازب » في نادي المؤلفين حيث عاش في جو متحرر
من تبعات الحياة لاءم اعصابه المتعبة وانساء وحشته الى حد ما . فوثق
اتصاله بالحركة الفكرية في العالم وارخى لقلمه العنان .

فلسطين

حوالي سنة ١٩٣٠ اخذت القضية الفلسطينية تطرح جدياً على بساط
البحث . الصهيونيون يصرون على تحقيق وعد بلفور والعرب يأبون
التخلي عن « ارض الميعاد » أياً كان الثمن ، والدول الكبرى وقد
اعتمتها المصالح عن رؤية الحق الصراح ، لا تأبه للجريمة الكبرى تنهياً في
وضع النهار ...

١ لم تنجز معاملاته القانونية الا سنة ١٩٣٩ وفد جاءت برتا الى لبنان سنة
١٩٥٣ وزارت آل الريحاني في الفريكة وترحت على الامين فوق قبره .

اما الريحاني الاديب الملتزم ، فما اكتفى بالمرآثي الرومنطيقية والتفجع قبل حلول المصيبة ، بل مضى يعمل على اجتناب الشر ، يبين تارة حق العرب الاكيد بموطن من اغلى مواطنهم ، ويظهر تارة مدى خطر التوسع الصهيوني في الشرقين الادنى والاوسط . وقد طاف في الولايات المتحدة رسولا خطيباً لا يكل . وفي هذه الغضون كتب اليه الحاج امين الحسيني المفتي الاكبر ، يسأله ان يشترك في الوفد الذاهب الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فاعتذر بقوله : « عدت اليوم من سياحتي الخطابية . شكر لكم ثقتم بانتدائي لعضوية الوفد الفلسطيني . كنت اود ان اقبل فيما لو تمكنت من القيام بنفقات السفر ، الا اني غير قادر بهذه الايام وانا الا اقبل مالا من احزاب سياسية جزاء خدماتي للعرب » . إلا انه رافق من بعيد قريب مراحل المفاوضات واعلن رأيه غير مرة حول تطوراتها في امهات الصحف الاميركية .

غير ان القضية الفلسطينية ، على خطورتها ، ما انست الريحاني اصدقاءه من لبنانيين واميركيين فكان يعود اليهم مثقلاً بالمتاعب شأنه شأن المركب الشراعي في الحُضَم يفتش عن مرفأ .

ولرب مرفأ آمن كمنت فيه عاصفة ، فالجوالهادي ، جو الجالية اللبنانية ، الذي كان يلوذ به الريحاني تعكر في ربيع سنة ١٩٣١ فجبران ، القطب

الذي كان يشيع الانس حوله ، عليل محتضر .

هرع الامين ^١ الى مستشفى سان فنسنت يعود صديقه بالامس رغم غيمة الفتور التي اجتاحت علاقتها ، فألقى البريق في ناظريه قد خبا والابتسامة قد تقلصت على غير عودة فوقف مع نفر من صحب جبران يتقبل التعازي .

واضطرتة المشكلة الفلسطينية الى الرجوع الى الشرق ليدرس عناصرها عن كثب ويتصل بجمهرة العاملين لها فاحتفل الحلف السوري في بروكلن بوداعه واهدى اليه كأساً من الفضة وجائزة نقدية فقبل الكأس ورفض المال وركب البحر الى لبنان وكان رفات صاحب « النبي » قد وصل الى بيروت في ٢١ آب سنة ١٩٣١ فألقى قصيدة ناجى فيها طيف « ذلك الذي حمل الارث القديم الى ما وراء البحار ... وظل يضطرب لرنات العود وغنات القصب » . وعاهده بأنه « من ظلال الصنوبر الذي سيغمر ضريحه في الفريكة سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، الى ضريحه في ظلال الارز » .

١ رافقه اخوه البرت في تلك الزيارة .

ما كان امين المشبع بروح الثورة الفرنسية ليرضى بقيد الانتداب يجد من حرية بني قومه ومن انطلاقهم الخلاق . لقد عمل بالامس البعيد على تحطيم النير العثماني يوم كانت الاعناق ارخص السلع فما خشي عاقبة . اتراه يخشى الاضطهاد في عهد الانتداب ؟ انه لا يكره فرنسا وهو تلميذ ثورتها وبعض مفكرها ، وهو من دعا الى التطوع في جيشها لمحاربة الاتراك في الحرب الكونية الاولى ، لكنه كره اساليب بعض ممثليها ابان الانتداب وجاهر بكرهه . حذر من مغبة هذه المجاهرة فما ارعوى . ولما دعت جمعية التضامن الادبي في بيروت للكلام ربيع سنة ١٩٢٣ ، القى كلمة قنبلة بحضور ممثل المفوض السامي قارن فيها بين اول وقفة وقفها في بيروت ايام عبد الحميد وبين وقفته تلك في عهد ديمارتيل السعيد فلم يجد تغييراً يذكر بين الوقفتين الا اذا حسب الرجوع الى الوراء تغييراً رغم الانقلابات الخطيرة في اوضاع العالم واحواله . « فمن عهد عبد الحميد قد انتقلنا الى عهد البعل . من ظلم ظاهر الى ظلم خفي . من ظلم مختل الى ظلم منظم . من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتقيها الناس الى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات . »

وما كاد يخرج من بوابة « التياترو الكبير » بعد هذه الخطبة النارية ،

حتى اعتقله رجال الامن وصدرت الاوامر بنفيه عن لبنان فحمل حقيبته
وفيه تصميم « فيصل الاول » وحل ضيفاً على الملك غازي في بغداد .
وقبل الرحيل وجه كتاباً الى جريدة « النداء » ودع فيه الاصحاب وغير
الاصحاب جاء فيه « ما احزنني مما كان لهذه الخطبة من النتائج الاجتماعية
والسياسية غير غيرة بعض الناس ، اخواني في هذه البلاد ، على ما يظنونه
مصلحة الفرنسيين وكرامتهم فصحت فيهم الكلمة الفرنسية الماثورة :
« ملكيون اكثر من الملك » وقد امعنوا في نزعتهم هذه فتجاوزوا
التأويل والتشويه لما قلت الى الوشيان والاغراء فقالوا اني فضلت عهد عبد
الحميد على العهد الحاضر (والمقابلة بين العهدين غير التفضيل) وقالوا اني
عدو الفرنسيين والانتداب وعدو السلطة المحترمة كلها . وما انا بعد عدو
لغير الجهل والخوف والتعصب في الناس ولغير الظلم والاستئثار والفساد
في السیادات والاحكام ، انما انا عدو اعمال لا عدو رجال ... انه يحزنني
والله ان يكون بين هؤلاء من الاسياد والصعاليك من لا يهمهم غير خبز
يومهم وان جبل هذا الخبز بالتزلق والذل والخداع وبما ان داءهم في قلوبهم
كما هو في جيوبهم فاني اسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران » .
واقام في العراق مكرماً يجمع المواد اللازمة لكتابه « فيصل الاول »
وينتظر الفرج فاتاه مع شباط سنة ١٩٣٤ بعد تدخلات الحكومتين

البريطانية والاميركية لدى وزارة فرنسة الخارجية وبعد تهديد الجوالي اللبنانية والسورية في اميركة بمقاطعة النتاج الفرنسي .

وعاد « المجرم » من منفاه وهو على اشد ما يكون نقمة واعية على الانتداب والمنتدب لكنه قطع عهداً لأمه بالانصراف عن السياسة فلزم صومعته وداوم على السكوت ^١ .

كانت توجيهه الدعوات الخطابية ومعها كلمة رجاء بأن يتجنب الموضوعين - البعبعين الخيفين - السياسة والدين (السلطة حظرت طرق هذين البابين) فقال مرة لأحدهم : « من يدعوني للخطابة ويقول لا سياسة ولا دين كمن يدعو الناس الى مأدبة لا خبز فيها ولا ماء » .

وانجز في تلك الفترة الصامتة كتابه « فيصل الاول » فنشره . وقدم له برد على من اتهمه باضطراب لبنانيته قال : « يريب بعض الناس حبي للعرب وملوكهم واهتمامي الدائم بشؤونهم وقد انتقدني نفر من الكتاب فقالوا ان وطنك القريب لبنان لأحق باهتمامك من الوطن البعيد ... ولكنك مستحقاً مدماتهم كلها لو ان حبي للعرب افقدني ذرة من حبي للبنان » .

١ حمل معه خروفاً بالطائرة رمز السلام

وتضمن «فصل الأول» سيرة العاهل العراقي الكبير في تعدد وجوهها .
درس المؤلف اخلاقه وطريقة عيشه وكيفية بلوغه المالك وما عانى من
مشقات في هذا السبيل وذكر بعض احاديثه مع جلالته في اثناء زيارته
الاولى للعراق وبّين الدور الرئيسي الذي لعبه لورنس على مسرح السياسة
العربية . وجاءت الخاتمة رسالة شعرية ناجية فيها روح فيصل باعجاب
عقبها خطبة القاها في حفلي الاربعين لذكرى فيصل في دمشق بعنوان
«النسر العربي» .

في تلك السنة نظمت ايران مهرجاناً ادبياً لمناسبة الذكرى الالفية
لمولد الفردوسي ، دعت اليه اشهر كتاب العالم فكتب امين تمثيلية قصيرة
«وفاء الزمن» اظهرت عظمة مؤلف الشهنامة الذي نادى باحياء الارض
ونشر السلام فوفى له الزمان ومنحه الخلود . وقد نالت هذه المسرحية
الطريقة اعجاب الامبراطور الايراني فأنعم على صاحبها بوسام
رفيع .

*

في سهرات الشتاء الطويلة كان امين يسأم العمل والوحدة في صومعته
الفريكية فيقوم بزيارة الجيران مع امه واخته سعدى . ولطالما طاب له
ان يجلس على الطراحة حول الموقد ويشترك ومواطنيه السذج في معظمهم

بلعبة « المظلوم » على سبيل التندر والترفيه ، فتعود به الذكرى الى عهد الطفولة ، عهد حكايات ابي ليلى المهلهل وحكايات جدته ، فيقارن في لا وعيه بين امسه ويومه ويتأمل ليدون خواطره عند الرجوع .

اما في نهاراته فكثيراً ما كان يقصد اليه القرويون ساعات استقباله ، فيحدث كلا منهم بما يعنيه محاولاً ان لا يشعره بأي تفوق عليه في حال من الاحوال . وكان يقصد اليه محترفو التسول فلا يرد سائلاً . ولكم اضطر الى ان يخفي احسانه هذا عن اخته سعدى لأنها كانت تأبى عليه أن يسخرى بماله لمن لا يستحق حتى اذا ثارت عليه اجابها مبتسماً : « الكفن ماله جياب يا سعدى . معنا لنا وللناس . ما معنا لا لنا ولا للناس » . فتهرز رأسها ساخرة من فلسفته الاقتصادية في الحياة ويأثس من إمكان إصلاح هذا الحلل فيه .

إلا أن تنسك الأمين ما كان ابداً ليقطعه عن خلانه ورفاق جهاده ، إن طال غيابهم عنه ذهب هو اليهم او كاتبهم وبشهم شعوره ورأيه على غير محاباة . وكان التملق للاجنبي سائداً في تلك الحقبة وكانت الميعة مهيمنة على انفة الاحرار فاذا بكل كتاب يوجهه لمحبيه حقنة من التمرد ونفحة من الالباء « المعاول يا اخي لألزم ما يلزم هذا الجبل الكثير الصخور . المعاول ! المعاول ! لتنقر في صخورها اليوم وتحطمها فتصير حجارة تصلح

للبناء وتصير تراباً يصلح للغرس والزرع . حطم اذن حطم ولا تخف ١ .
ان عقيدة الريحاني ، وقد جاوز الستين ، لا تختلف من حيث صلابتها
عنها في الصبا . لقد حمل المعول دائماً في صميم قلمه وحطم على غير هوادة
ليقيم على الانتقاض صرحاً يماشي التطور .

١ من رسالة الى فؤاد الشمالي « صاحب المريخ » .

القضية الفلسطينية

نشر الريحاني كتابه « قلب العراق » وضمنه رأيه الصريح على عاداته فلم ترق بعض فصوله السلطة العائمة عهد ذلك في بغداد فمنعت دخوله اليها وصادرت نسخه المباعه « زاعمة انه يحتوي كثيراً من المباحث التي تتعارض مع المصلحة العامة ولا تتفق مع الحقيقة .

غير ان هذا التدبير الكيفي لم يثن الامين عن عزمه فواصل رسالته التحريرية بحزم .

كانت القضية الفلسطينية السبب الالهم في عودته الى بلاده فمضى يكتب في الصحف المحلية ويلقي الخطب والاحاديث ليوقظ الرأي العام على الواقع . وقد وجه رسالة إلى الملوك العرب اورد فيها بعض ما يدعم حق الفلسطينيين :

« أما حق العرب الوطني القومي التاريخي القانوني فظاهر كالشمس في

رائعة النهار يؤيده اولا عهد الحكومة البريطانية الذي قطعت له الملك حسين (في ك ٢ سنة ١٩١٦) بتأسيس دولة عربية تشمل فلسطين وسوريا والعراق ثانياً يؤيده تعهد الحكومتين البريطانية والفرنسية في بلاغها الرسمي (ت ٢ سنة ١٩١٨) الذي يضمن لمن كانوا رازحين تحت مظالم الاتراك ، اي العراقيين والسوريين والفلسطينيين ، حقوقهم في تأسيس حكومة وطنية تستمد سياستها من مشيئة الاهالي الحرة ثالثاً تؤيده المادة التي تقدم ذكرها (وعد بلفور ت ٢ سنة ١٩١٧) وفيها تتعهد الحكومة البريطانية ألا تقدم على عمل ما مضر بحقوق اهل فلسطين الدينية والمدنية وتؤيده رابعاً الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من معاهدة فرساي التي تضمن لأهالي فلسطين وسوريا والعراق الحق في تقرير مصيرهم .

ايقن الريحاني بأن الدعاية للعرب ولا سيما الفلسطينيين ضرورة جداً في الاوساط الأميركية « لأسباب ثلاثة : اولا لمقاومة الدعاية الصهيونية التي اضررت كثيراً بالقضية العربية وشوهت سمعة العرب ، ثانياً لتشجيع الاميركيين الراغبين في الدفاع عن قضية العرب ، ثالثاً لرفع شأن السوري واللبناني والفلسطيني في الولايات المتحدة » فلما دعت مؤسسة التربية الدولية في اواخر سنة ١٩٣٦ الى اللقاء سلسلة من المحاضرات عن الشؤون العربية والاحوال السياسية والتراث الادبي في الشرق الادنى عموماً ، لم يتردد

في تلبية دعوتها . لقد وجد فرصة ملائمة لتحقيق مسعاه .

بلغ امين الولايات المتحدة وشرع يلقي محاضراته في مختلف الولايات وخاصة في كاليفورنيا ووشنطون واوريجون ، وقد بحث في القسم الثقافي منها حول اثر العرب في المدنية العالمية وقيمة الف ليلة وليلة ، مصادرها الفارسية وصلتها بحكايات « بوكاتشو » ثم النهضة الادبية الاخيرة ، وقابل بين طاغور وكبلنغ وحلل نقاط التلاقي بين الشرق والغرب . اما في القسم السياسي ، فعالج الاغتياب في الدول العربية وما اثار من اضطرابات شعبية في سبيل التحرر وتكلم عن العلاقات القائمة بين مختلف الاقطار وجيرانها وانتقل منها الى الحلف الشرقي ، ثم درس صلات الشرق العربي بأوروبا واميركة وعرض قضية فلسطين مبيناً اغتصاب الصهيونيين الفاضح . وقد كتب الى اهله سنة ١٩٣٧ يصف احدي رحلاته قال : « تركنا بلنغ وست فرجينيا الى شيكاغو والمسافة بين الاثنتين تقارب الـ ٨٠٠ ميلا ثم تابعنا سيرنا الى ميتروبوليس منبشتا وهي تبعد ١٢٠٠ ميلا عن الحطة التي وضعت لرحلتنا ولينا الدعوة لسبب واحد هو الدفاع عن حقوق العرب » . على ان دفاعه عن فلسطين لم يكن لينحصر في هذه المحاضرات وحدها بل تعداه الى الابحاث الصحفية الضافية والى المناظرات العلنية تجري بينه وبين اقطاب الصهيونية كجاكوب ويهاس وموريس صموئيل ،

وقد كتبت جريدة التايمس ستار في سنسناي اوهايو اذ ذاك ما ترجمته :
« اجتمع خلق كثير برعاية جمعية السياسة الخارجية في نزل جيسن لاستماع
حوار جرى حول القضية الفلسطينية بين الريحاني وموريس صموئيل اعلن
الاول في سياقها ان الصهيونية في فلسطين قد تطورت من روحية مسالمة
الى سياسية جائرة طامعة في التوسع والاستيلاء على الاحكام » وقد اقترح
امين في مقال نشرته بمجلة « فلسطين وشرق الأردن » الانكليزية انشاء
وطن قومي في ولاية تكساس بأميركة اذا لا بد من ايجاد وطن قومي
لليهود .

مي

كان البوت يوافي اخاه اميناً كل ليلة بصحف العاصمة واخبارها عندما
يعود من عمله . ففي ذات مساء بينما كنا يتحدثان ، ابلغه ان مي زيادة
خولطت في عقلها وادخلت مصحح العصفورية ، فانتصب هذا مذعوراً
يستوضح اخاه : مي الادبية ابنة الياس زيادة مجنونة ؟ ؟ ماذا تقول
ياالبوت ؟ ... حتى اذا رأى بعينه الخبر في الصحف وتأكد صحته ثار
ثأره وصاح : لا ! لا ! كيف يكون هذا ؟ وللحال مرت في ذهنه
ذكريات الامس البعيد ، فتمثل ميأ في كوخها الاخضر وتمثلها تيس امامه
في الصومعة حيث هو وتمثلها في مصر تخطب وفي سفح الهرم . ثم تخيلها

مجنونة في المارستان ، فوجم واضطرب واسودت الدنيا امام ناظريه .
ونزل في الغد الى بيروت يزور مياً وقد نقلت الى مستشفى ربيز
فرفضت ان تقابله وتمررت ساخطة ، فلم يكن منه الا ان فتح عنوة
باب غرفتها ودخل واذا بها نهكة هزيلة ترغي وتزبد ولا تود ان تشاهد
امرءاً . حاول ان يهديء اعصابها ملاطفاً في بادىء الامر ، لكنها ازدادت
هياجاً ونقمة ، فاغبر وجهه للحال وصدق اليها بعينين مترعتين بالمرارة
تعبران عن حرقة النفس واستسلما كلاهما الى الصمت البليغ . وبعد
وجوم لم يكن قصيراً ، تأوهمت المريضة وتمتت : « لقد ظلموني يا امين
وأذاقوني من الاضطهاد أمره » وشرعت تروي قصتها وهي لا تتمالك عن
الزفير اللاهب . فأمض الريحاني ذلك المشهد ، لكنه تجلد عن ابداء اساه
واملها بالفرج القريب ثم صافحها دامعاً وتواري .

وكانت المرة الاولى التي رأى امين فيها مياً بعد ان تركها في سفح
الهرم سنة ١٩٢٢ زاهية تتفجر حياة ورجاء وغبطة .

*

عندما غادر الريحاني مصر ١٩٢٢ عاهد مياً على ان يرسلها ويعلمها
بأحواله كل مدة ، لكنها شاءت الظروف غير مشيئته ، كثرت عليه
المصاعب في الجزيرة وتراكت مشاغله حتى كادت تنسيه كل ما عداها .

ولما رجع الى لبنان وعلم بعلاقتها الخيالية بجبرائيل ، التي كانت يومئذ خديث الجميع ، لم يخطر له ان يجدد صلاته بها لاسيما وانه حفظ اثرأ سيئاً عن المرأة وتقلباتها بعد ان خذاته برتا . أما مي وقد آلمها اعراض الريحاني عنها ، راسلت جبران وهو في اوج شهرته يومذاك فرد عليها باهتمام وتوثقت بينها روابط المودة رغم البحار الفاصلة .

ومات جبران فهلعت مي واضطربت ، ثم توالى عليها مواكب الشجون وساورتها السويداء وأورثتها مع الايام عوارض المستيريا التي تلازم عادة يأس العوانس العاطفيات عند مناهزة الحمسين ، فنسب اليها الجنون وكان من امرها ما كان .

وتترك « المجنونة » المستشفى وتسكن مخدعاً قرب الجامعة الاميركية كان يعودها فيه امين ، البروت الريحاني ، شارل مالك ، قسطنطين زريق ، خليل الخوري والامير عبد القادر الجزائري يؤاسونها حيناً ويخففون عنها وطأة الآلام .

وكأنما المصائب للامين بالمرصاد لا تأتيه إلا مزدوجة ، فبينما كان يعمل في مكتبه ذات صباح ، وافته سعدى شاحبة الوجه خائفة تناديه : « اسرع يا أمين ان أمي تنازع » وبعد هنيهة كان الريحاني فوق رأس أمه وكانت قد لفظت روحها فجأة قبل ان تراه ، فعرض على سبابته ، ووقف

ذاهلاً يفرك يديه وهو يصرف أسنانه ثم دخل الصومعة يواجه نفسه في
السكون ويستعيد بالذكري مراحل حياة ناعمة قضاها في كنف ام
امين .

وتدعوه الى نيويورك بعد مدة المحاضرات السياسية والثقافية التي لم
يكن اتمها بعد ، فيستأذن مياً ويسافر الى الولايات المتحدة والغم والهم
اليقاء . وهناك انجز مهمته سريعاً ، نور الرأي العام الاميركي على تطور
القضية الصهيونية واظهر اعمية الانتاج الفكري في الشرق الادنى ثم رجع
للمرة الاخيرة الى لبنان ، وكان الجو السياسي ينذر بالتفاقم الشديد .
وفي طريقه ، عرج الى المغرب الأقصى ، يطوف اقاليمه دارساً اوضاعه
بامعان ، وقابل حضرة الخليفة وباحثه في شؤون بلاده فأكرم هذا
وفادته وقلده ارفع وسام لديه . وواصل امين سفره الى لبنان وهو قلق
عطش إلى أخبار مي .

وصل الريحاني الى بيروت والصيف في اول احتدامه ، وكانت
المريضة قد بدأت تتعافى وتستعيد حيويتها وقد اشار عليها الطبيب بأن
تصطاف في منطقة متوسطة الارتفاع ، فاقترح امين نقلها الى منزله في
الفريكة ، فمانعت في البدء كل الممانعة وابت ان تنزل في بيت لم يخصص
لها ، حتى اذا وعداها بأن يهيء لها مسكناً مستقلاً تعيش فيه وحدها ،

قبلت دعوته وجاءت نتسم الوحي في الوادي !

ها هي مي ترجع الى الفريكة ، بعد ربع قرن وقد اعتراها الهزال
وحطمتها العلل وهذه هي الفريكة نفسها تستقبلها اليوم ، كما في الامس ،
ضاحكة تدفق حياة . وهنالك في مسكن قروي بسيط ، كانت مي
تقضي ساعات النهار ، تعمل في المنزل او تطالع وتكتب وتتأمل الى ان
يقبل الليل فيزورها امين وسعدى والبرت يلعبون معها « البينا كل »
ويتندرون ويضحكون ... والايام تستمر والذكريات تعاود ميأ ،
لدى اختلاؤها بنفسها ، فترتعث ناقمة ، ويخنقها الزفير .

ويولي الحريف ويبأتي الشناء ، وتسافر مي الى مصر ، وقد هدأت
اعصابها على نوع ما وعاودها النشاط ، وهي تحفظ للربحاني والفريكة
واهلها اسمى جميل .

*

اطمان امين بعض الشيء الى صحة مي ، فاستأنف بعد ذهابها العمل
الجدى واخذ يصنف كتاباً عن المغرب الاقصى تحدث فيه عما شاهده ،
اثناء سياحته الاخيرة ، من عادات شعبه واطواره وحالة المجتمع
وخصائصه وعظمة جبل طارق والى كل ما هنالك من امور تساعد في
اظهار واقع المغرب .

قلب لبنان

كان للحرب العالمية الثانية وقع الصاعقة على الامين ، ولا غرو فقد
خبر عواقب الحرب الاولى ، وما جرت من ويلات على العالم عامة وعلى
لبنان خاصة ، إلا انه سلم بالواقع على كره وراح يأمل في كل صباح
انفراج الازمة فيخيب امله في المساء . وينام وفي ذهنه شبح رهيب امعنت
في تصوير هوله انباء الاذاعات .

إلا ان المشقات ما كانت يوماً لتشل نشاط الريحاني فأفاد من تلك
المحنة ليقوم بجولة جديدة في بلاده يتصل بمواطنيه عن كتب ويكشف
اوضاعهم ويخفف من بؤسهم ويدون ملاحظاته ليضيفها الى ما سبقها من
الرحلات في كتاب جديد .

في هذه الرحلات اجتاز امين اكثر لبنان ماشياً او على ظهر البغال
لا رغبة بالنزهة فقط بل حباً باستكشاف جمال الطبيعة في مشاهدنا
ومكنوناتنا .

ولما توافرت له المادة الكافية راح يكتب « قلب لبنان »^١ .
وكأنما الاقدار شاءت ان يموت الريحاني وقلبه معلق في - قلب

١ مات قبل ان يتمه فنشره اخوه البرت كما هو سنة ١٩٤٧ .

لبنان - فسوات له في الخامس عشر من آب سنة ١٩٤٠ ان يركب الدراجة بعد ان انقطع عن ركوبها اربعين سنة ، وانطلق مسرعاً واثقاً من مرونته الى ان بلغ احد المنعطفات الوعرة حيث فاجأته النوبة العصبية في يماه فعجز عن متابعة السير وهوى الى الارض وقد تضرر رأسه وفخذه اليسرى رضوضاً أليمة نقل على اثرها الى مستشفى ربيز في بيروت^١ ، وهناك كان يعودہ الاحباء والحلان يتسامرون ويهزجون ولم يكن يخطر لأحدهم ان ضربة الامين حاسمة قاضية . وتفاقت جراح فخذه واشتد الوجع ، وهو رابط الجأش صابر ، الى ان كان اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر ، يوم فقد الطب كل رجاء بالشفاء ، فنقل الى الفريقكة بناء على رغبته ، كأنه تذكر لامرتين في قوله : « اعزني ملجأ يوم واحد يا وادي الطفولة انتظر فيه منيتي » فأبى إلا ان يغمض عينيه في الوادي الذي احبه كل حياته .

ولما تملكته حشجة النزاع ، تراحت في ذهنه ذكريات الامس كلها ،

١ كان مزماً على اقامة حفلة شاي تكريمية على شرف الشيخ عجيل الباردي ، شيخ مشايخ شمر ، يوم الاحد ٢٥ آب وقد جاء في دعوته لهذا الشيخ « ان الفريقكة ستترقب طلوع بدركم فعسى الا يحدث ما يحول دون سرورها وسروركم . وكانت الرسالة آخر ما خطه الامين .

الأب مرقس وقضييه ، عمه عبدو ونيويورك ونيوبرغ والفواتير والمنزل
الرطب والعريضة والتمثيل ونعوم ثم مي وبرتا والبادية ولبنان وام امين
وسعدى والصومعة والفريكة ، وارسل نظرة الى صميم الافق والى من
حواله يودع ويصدق برسول الموت .

وفي الغد دفن الامين بجوار امه فمضى ذلك المجاهد المتمرد الذي لم
يعرف الوهن ساعة في حياته ، وقد خلف آثاراً مخطوطة كثيرة ، بينها
اربعة اجزاء من الريحانيات ، مجموعة مقالات وخطب وخواطر يعرض
فيها عرض ذكرى وتفكير ما شعر به وراءه في جولاته ومطالعاته
الاخيرة بأسلوب هذب التمرس والاختبار ، وعدداً كبيراً من رسائله
الخاصة ، التي كان يوجهها الى اشخاص اختلفت طبقاتهم وجنسياتهم ، تم
عن اخلاقه بوضوح وبعض كتب انكليزية - العراق - الملك فيصل --
درس في الف ليلة وليلة -- وجدته - وكريمه - لا يلبث المستقبل ان يظهرها
بعد حين ويظهر الريحاني حياً خلالها .

*

هذه هي المرحلة الثالثة من حياة الريحاني انتهت بموته ، مرحلة كلها
عمل ونضال واضطراب لم يذق الراحة خلالها الا لماماً . وجدناه في اولها
يحقق حلماً تمكن منه ، يقصد البلاد العربية ، يحتمل مختاراً عناء التنقل

المضني على ظهور الابل والحيل والحمير في مناخ سيء حار ويقاسي المرض والآلام مخاطراً بحياته كل ساعة في سبيل توحيد الجزيرة وانهاض العرب وتقاربهم ، ثم سمعناه يندد بالانتداب ومريديه لا يخشى نفيًا ولا عذاباً لأجل العدالة ويدافع عن فلسطين في الشرق والغرب بكل ما اوتي من عزيمه ومنطق وجسارة ، لا يبتغي الا خدمة الحقيقة والخير فمات وهو على ما اشد ما يكون حمية واستعداداً للقيام بالواجب الانساني . لكننا ثمار جهاده لم تمت بموته بل قاوم بعضها الفناء وحافظ على طراوته وفعاليتها وسيبقى طالما للحرية مريدون . « اشياء كثيرة تذكرنا هذه الايام بأمين الريحاني ، اولها الصدام الضخم الذي يشهده العالم - ويشهد نهايته - بين قوى التقدم والرجعية ، لانشاء مجتمع جديد يتمتع فيه الافراد والشعوب بأكثر ما يمكن من اليسر والحرية . وثانيها مشي الشعب اللبناني قدماً نحو استكمال شروط السيادة والحياة الاستقلالية ، وقد كان الريحاني من انشط العاملين ، بقلبه ولسانه ، في الحقل الوطني يلمس اثر ذلك في كل ما كتبه واذاعه ، وثالثها مشاورات التعاون العربي الذي كان الريحاني من اصدق الداعين اليه والساعين له عن الطريق المثلى طريق التعارف بين مختلف الاقطار العربية ، يعرف العرب بأنفسهم ، ويعرف بعضهم الى بعض في مؤلفات قيمة ممتعة ، من « ملوك العرب » الى « قلب

لبنان» ١ . كما يذكرنا به كل تجديد جريء في حقل الادب وكل تضحية
ابية في خدمة العقائد السامية وكل صرخة صريحة في سبيل الانسانية
والعدالة والحق .

وصية الريحاني

لا بد في ختام هذه السيرة من نشر بعض وصية الريحاني لأنها تلقي
نوراً كاشفاً على الحقائق التي اعتنقها آخر ما اعتنق واراد ان ينادي بها
عبر القبور :

« لم تكن حياتي حياة القديسين والاولياء والحمد لله ولا حياة اولي
الثروة او اولي السيادة والحمد ثم الحمد لله . ولا حياة ذوي الصحة البدنية
والقوة الحيوانية ذوي الاعصاب والعضلات الحديدية والحمد ثم الحمد لله .
ان ما فاتني من الحياة اللامعة عرفته خلال الحياة الدامعة فالاثم والمرض
والوحشة والحاجة هي اصدق الادلاء الى الحقائق الانسانية في نواحي
الحياة جمعاء وقد واليت الدليل في الشرق وفي الغرب وتأبطت احد كتبه
- كتاب الآلام - ثلاثين سنة وحملت في جيبي كتاب الوحشة على
الدوام وحاولت ان احرق كتاب الاثم وامزق كتاب الحاجة فأخفقت
وما استسلمت .

١ عمر فاخوري - الحقيقة اللبنانية .

أوصي اليكم اخواني في الانسانية البيض والصفير والسود على السواء
شرقاً وغرباً .

١ - ان حق الشعوب في تقرير مصيرها لحق مقدس فأوصيكم بالجهاد
في سبيله اينما كان .

٢ - ان الامة الصغيرة وهي على حق لأعظم من الامة الكبيرة وهي
على باطل .

٣ - الامة القوية الحرة لا تستحق حريتها وقوتها ما زال في العالم
امم مستضعفة مقيدة .

٤ - لا تبلغ الانسانية اعلى درجات الرقي ما زال نصفها مستعبداً
واعلموا ان الاستعباد الاقتصادي في البلدان المستقلة الغنية هو شر من
الاستعباد السياسي والاقتصادي في البلدان التي لا تزال تحت سيطرة
الاجانب ، اوصيكم بمحاربة الاستعباد اينما كان وكيفما كان .

٥ - الانتداب كما حدده وودرو ويلسون الاميركي الحالد هو معقول
مقبول ولكنه علمياً مكروه مرذول انه اخبث من الاستعمار فأوصيكم
بجهاده حتي ينتهي .

ثم ينتقل في الوصايا الباقية الى ابداء آرائه في الدين فيقول انه وحداني
يعتقد ان جميع الانبياء من بوذا الى المسيح الى محمد الى بهاء الدين

يعكسون النور الالهي ، ويحض على التعلق بالروح دون المادة ثم يتكلم
عن البلاد العربية وعن وسائل نهضتها القومية ، يهاجم المستثمرين من
رجال الاكليروس لأن الدين ليس إلا صلة حية منيرة بين المخلوق والخالق
ويبشر بالاخوة الانسانية قائلاً انه لا ينبغي ان يقتصر المرء على خدمة
وطنه دون سواه بل عليه ان يخدم الانسانية جمعاء ويتحرر من جميع
القيود الاجتماعية والتاريخية والدينية التي يرسف بها ولا يبقى إلا قيد
الحب الذي يدينه من خالقه ويجعله جديراً بالانسانية .

تلك هي باختصار وصية الريجاني وهي تتم عن رجل مثالي واع أراد
ان يحض على الواجب الانساني من خلال الثرى ، فزدد بالاستعباد
والاستثمار والحيوانية بصراحة لا تعرف الهوادة ونادى عالياً مقتنعاً
بالحرية والمحبة والمساواة. وهذه المبادئ التي شاء تحقيقها لدى الغير عاشها
اولاً وجعل من ذاته وحياته قدوة .

الفصل الثاني

أمين الرحاني

في أدبه وتفكيره

آثار الامين

حسب تاريخ صدورها

سنة	التأليف العربية
١٩٠٢	موجز تاريخ الثورة الفرنسية
١٩٠٣	المخالفة الثلاثية
١٩٠٤	المكاري والكاهن
١٩٠٨	ثلاث خطب
١٩١١-١٩١٠	الريحانيات جزءان
١٩١٥	زنبقة الغور
١٩١٧	خارج الحرم او (جهان)
١٩٢٣-١٩٢٤	القوميات جزءان
١٩٢٤	ملوك العرب جزءان

١٩٢٧	تاريخ نجد الحديث
١٩٢٨	النكبات
١١٣٠	التطرف والاصلاح
١٩٣٣	انتم الشعراء
١٩٣٤	فيصل الاول
١٩٣٤	وفاء الزمان
١٩٣٥	قلب العراق

سنة التآليف الانكليزية

١٩٠٣	<i>The quatrains of Abu , l ala</i> رباعيات ابي العلاء المعري
١٩٠٥	<i>Myrile and myrrh</i> المرو واللبان
١٩١١	<i>The book of Khalid</i> كتاب خالد
١٩١٨	<i>The luzumiyat of Abu l ala</i> اللزوميات
١٩٢٠	<i>The descent of bolshevism</i> تحدر البلشفية
١٩٢١	<i>The path of vision</i> جادة الرؤيا
١٩٢١	<i>A chant of mystics</i> انشودة الصوفيين
١٩٢٨	<i>Ibn saoud ol Arabia</i> ابن سعود ونجد <i>his people and his land</i>

حول الشواطىء العربية ١٩٣٠ *Around the coasts of Arabia*

بلاد اليمن *Arabian peak and desert* ١٩٣٠

التأليف التي نشرت بعد موته

بالعربية

المغرب الاقصى

قلب لبنان

سجل التوبة (مجموع روايات)

بذور للزارعين

رسائل امين الريحاني

الكتب الانكليزية التي لم تطبع

دروس في الف ليلة وليلة

العراق في عهد فيصل الاول

وجده - قصة

كتاب عن قبائل الميا في المكسيك

مجموعة رسائل

اسلوب الريحاني

ما زال امين الريحاني حتى اليوم صاحب مدرسة خاصة في الكتابة ينهج نهجها الكثيرون . ذلك انها استمدت معطياتها من وحي مقتضيات العصر فجاءت تسد فراغاً في محيط الادب اللفظي المرصوف على غير مضمون ، جاءت ثورة على الكلام المنمق والاحاجي والتوريات التي جعلت الانشاء العربي عند اكثرهم ضرباً من التسلية على غير طائل . فما هي خصائص اسلوب الريحاني التي تجاوزت محنة الزمن ؟

قال الأمين :

عندما ازمعت هجر ما ألفته من ضروب البلاغة والبيات اقمته والقاموس سنة عددها من ايام اهل الجنة ، فنسيت ، في خزعبلات اللغة ، خزعبلات الحياة كلها . واعذب الخزعبلات أبعداً من الأصول .

القاموس مستودع قمح فيه من الزوان والحصى والتراب شيء كثير .
وقد تزودت من بغداد الغربية ما قد لا يكفي في نظر علماء الأزهر .
ولكن القناعة كنز لا يفنى . »

بمثل هذه البساطة وهذا التحرر من المعتقدات القاموسية كان يكتب
أمين الريحاني .

خصائصه

انشاء نزق ، فكه ، سلس ، متماسك الحبك ، عصبي ، بعيد عن
التعقيد والغرابة . انه يلائم ، كل الملاءمة ، تنقل الكاتب على غير تمهيد
من الوصف الى الحوار ، الى النقد ، فاذا لکل لون من الحديث لون
من اللفظ . الجزل للجزل ، والغريب للغريب ، والخفيف للخفيف ،
واذا التورية والكناية تأتيان عفو الخاطر كمثل قوله : « كان كارليل
يرعد اذا اغضب ويمطر . اما فولتير فكان يتسم ابتسامته المشهورة
ويسير بهدوء الى غايته المطاوعة » .

والكاتب الى هذا ، وهو غني بمفردات اللغة ، ينزل الكلمة منزلتها
فلا تأتي مقلقة ولا حائرة ، ولا ناصلة لفرط الاستعمال . لقد تتلمذ على
الجاحظ ورابليه وفولتير فلقح اسلوبه بالظرف والسخرية والدعابة في

أخطر الموضوعات التي يعالج : في نقد معتقدات المؤمنين ، كما في ذم
الخرافات كما في التصوير والتحليل . أنه يدس التهم دساً ساعة يعياه البرهان
المنطقي .

والريحاني يكثر في كتاباته من الجمل المعترضة التي يقصد المزاح منها
تارة وزيادة التوضيح تارة . وهو يعتمد الاستطرادات المتنوعة تعمداً ،
شأنه في ذلك شأن الجاحظ الذي قال : « ان كنا قد املناك بالجد ،
والاحتجاجات الصحيحة والمروجة لتكثر الحواطر وتشذ العقول فائنا
سننشطك ببعض البطالات وبذكر العال الظريفة » . اما النكتة فهي
حاضرة ابداً على اسلحة قلمه يفرج بها عن ألم أو سأم .

قال الريحاني :

« ان رقي اللغة لفي الخروج على السمج العقيم من مألوفها مع المحافظة
على روحها . لست في المفردات الشدياق ، ولست في الاوضاع اليازجي ،
ولا انا من الطامعين بمثل هذا الغنى . ولكنني اعلم ان مزية الالفاظ هي
فيها قائمة بنفسها . . . ان للالفاظ ما سوى الرنة والوزن بل الموسيقى
والشكل ألواناً ايضاً ، وروائح في مارق وشف ، وتماوج وضاح من
معانيها - اجل ان في الالفاظ ما تعد في الاحياء لها مرونة البان ،
وصلابة السنديان ، وسلاسة الماء الجاري ، وشذا الرياحين ، وزمزمة

الرعود ، وصفير البلابل ، وهمس النسيم ، وايجاء الالوان ، مما يجعلها
لدى الكاتب كنزاً في الانشاء والابداع .

الصورة الموحية

يعبر الريحاني عادة عن فكرته بمثل حسي ملموس كقوله : « رب
او هام كبعض الاطيار تبيض بيوضها في عش الحقائق » ويعنى بالدقائق
والتفاصيل ويفتش عن الكلمة المؤثرة الموحية وعن اللون والحركة ،
ويتجنب الكلام غير المؤلف اللهم إلا للجزء والتجريح كما في المقامة البكيجية .
انه يعبر عن فكرته بصفاء وحيوية وبساطة ، ويجيد اختيار الصيغ
المفاجئة سجعاً وترسلاً ، ولا يتورع عن استعمال اللفظة التي تطمئن اليها
اذنه عندما تكون الكلمة القاموسية ثقيلة الوقع . فهو مثلاً يستعمل
« منتزه » و « متمدين » عوضاً عن « متنزه » و « متمدين » ، وفي هذا
يقول : « لست منكراً ما في القاموس ولست طامعاً بأن ازيد عليه .
ولكنني اسأل هذا السؤال : إذا خلت اشتقاقات نزه من انتزه وكان معنى
تنزه عكس المطلوب والمفهوم فهل يجيز القياس او السماع انتزه ثم اسم
المكان منها بدل الاسم الذي صار معلوماً وفهوماً ، وهو فوق ذلك خفيف
لطيف ، لا اثر للتحدث في » .

لقد أخذ أحياناً على هذا الأسلوب ركافة الانباء الصحفية العادية

نتيجة السرعة أو إهمال الصقل كما أخذ عليه التصرف الحر بالحروف التي تتعدى بها الأفعال فضلاً عن اللحن في الإنشاء .

ومها يكن من أمر فان أسلوب الريحاني حي حار ومن لحم ودم .
انه يتلبس فكرة المؤلف تلبساً وكأنه فصل لها فتبدو منظورة من خلال زجاج شفاف . انه ثورة جارية على الادب المخطط المزركش الهذار .

ابو الشعر المنشور

عرف أمين الريحاني بهذه الكنية لأنه أول من كتب شعراً منشوراً او قريضاً حراً في العربية . وقد نقل هذا الزمي الرائج في الغرب عنـ وولت ويتمن . وهو في رأيه آخر ما اتصل اليه الارتقاء الشعري عند الافرنج وبالاخص عند الامير كين والانكليز « فلتن وشكسبير أطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولت وتمن الاميركي أطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابجر العرفية . على ان لهذا الشعر وزناً جديداً مخصوصاً وقد تجيء القصيدة منه على ابجر عديدة متنوعة . وولت ويتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لوائها وقد انضم تحت هذا اللواء بعد موته كثير من شعراء اوروبا العصريين » . لكأن الريحاني المتمرد على كل تقليد ابي أن يعنف عن القوافي والعروض في الشعر العربي فحطمها وأطلقه منها محتدياً مثال الشاعر الاميركي .

اما تبرير هذا التحرير وتفسيره فهو ان صاحبنا وجد ان عقم تصور الشعراء وتبذلهم سببه الافعل تقيدهم بالبحور والروي . وتحقق ان التزام القافية الواحدة والاوزان الوضعية يحول غالباً دون التبسط والتدفق ويضطر الشاعر اما الى أن يلجئ قريحته لثلاث تقع في البيت « فتكسر رأسها واما الى أن يشذب المعاني الجديدة لتلائم الصيغ القديمة وإما إلى أن يختار أهون الامور فيجئنا بالثر المنظوم ^١ » والشعر بعد أمواج من العقل والتصور تولدها الحياة ويدفعها الشعور فتجيء الموجه كبيرة أو صغيرة ، هائجة أو هادئة ، محرقة أو باردة أو فاترة ، بحسب ما في الدافع من قوة الحس والبيان . وكل موجه من الامواج قالب من اللفظ شعراً كان أم نثراً . يصوغه الشاعر في حال التقيد او الاطلاق ، فيجئ عدلاً او مجسماً ، مبتكراً أو مبتدلاً ، جميلاً أو سمجاً ، بحسب ما عنده من ذوق وصناعة . فاذا جاء القالب كبيراً ، سمعت الموجه تتقلقل فيه فيذوب ما فيها من معنى وجمال . واذا ما جاء صغيراً يفقدها الضغط جمالها ومعناها . اذن لكل موجه قالب لا تنها في سواه ، أو بالأحرى لكل فكر صيغة لا يسلم ولا يصح ولا يكون جميلاً إلا فيها . كذلك

قل في كل عاطفة وكل خيال . فاذا جعل للصيغ أوزان وقياسات تقيدھا
تتقيد معها الافكار والعواطف فتجبيء غالباً وفيها نقص أو حشو أو
تبذل أو تشويه أو إيهام . وهذه بليتنا في تسعة اعشار الشعر المنظوم
الموزون » .

والواقع إن الشعر ليس كلاماً موزوناً مقفى وحسب ، بل هو فيض
شعوري متناغم يحوطك بجو من النشوة الفنية تشدك إلى الشاعر فاذا بك
نجيه بالرغم منك : ألمه يؤلمك ، وفرحه يفرحك ، وتجاربه تبعث فيك
صدى ، وقلقه يزعج التنفس في رئتيك . فاذا ما اعتمد الاقدمون الوزن
والقافية في الشعر فلأنهم أرادوه موسقاً تتجاوب أوزانه مع الحداء أو ما
يشبه الحداء وتنسجم قوافيه مع رتوب القفر الفسيح . اما وقد تطورت
التجارب الحياتية وتنوعت مجالها فكان لا بد ان تتطور اغراض الشعر
وهياكله ومقاييسه . فالموشحات الاندلسية مثلاً ، وقد أوحاها جو زاهر
عذب ، اعتمدت قوالب رشيقة تجانس الذوق الذي يأبى الاجهاد فاستقل
المقطع بقوافيه وتلونت الأوزان وتشابكت البحور . وما صح
بالموشحات الاندلسية يصح ، في نسبة ما ؛ بمعظم الشعر المهجري الحديث .

بيد انه لا بد من ضابط هرموني في القصيدة المنشورة يحل محل
القوافي والاوزان القديمة وإلا تعذر التمييز بين الشعر الحر أو المنشور
والنثر الشعري أو المشعور . . . ولقد أخذ الريحاني نفسه بهذا المبدأ حين
قال : « على أن لهذا الشعر وزناً جديداً مخصوصاً الخ . . . »

هذا من حيث الشكل . اما من حيث الجوهر فتبقى للشعر اغراض
مجنحة يقصر عن ادائها النثر الزاحف . . .

في مجموعة « هتاف الودية » لا بد ان تدرك بادىء بدء ان الريحاني
حذا حذو ويتمن في « اوراق العشب » في الصيغة المتحررة ، بقدر ما حذا
حذوه في اختيار الموضوعات الديوقراطية والقومية وهي موضوعات
تعالج في النثر ، كما لا يخفى ، بصورة افضل وافعل . فمن الريح السموم ،
إلى الثورة ، الى الرماد والنجوم ، يكاد يطبق على صدرك بما تلبد من
غيوم . لكن الفرج يأتيك ، عند مهد الربيع فيورق الورد ويهتف
الوادي وتذوي الزنابق فيعمر الجو بالطيوب .

وفي القسم التوجيهي من الديوان ما تأثر الريحاني ولت ويتمن
وحسب ، بل تأثر خصوصاً السور القرآنية اسلوباً وفكرة ونغماً ، فما
الريح السموم مثلاً إلا ربح صرصر بعينها التي اهلكت عاداً ، وما السجع
في « بربك العيوم » ما الذي تظنه يدوم إلا صدى بعض آيات

ويعود بنا القسم التالي إلى جوفني فيه فوح اريج وفيه زقزقة حساسين
لكنه رغم هذا لا يحملنا إلى اثير الانخطاف . واخلال ان الشعر الريحاني
يعوزه الحيال المجنح بقدر ما يعوزه ذلك الوزن المخصوص الذي تحدث
عنه نظرياً . فلو اخذنا قصيدته في رثاء حبيبة عمره :

أيتها الساكنة قعر النهر القصي
أيتها الراقدة تحت الأمواج الغريبة
لا تجزعي ولا تخافي

انت اميرة اللؤلؤ ، واللؤلؤ يلاقيك مرحبا
انت ملاكة المرجان ، والمرجان يمجذك منشدا ٥

لو اخذنا هذه الايات وكتبنا بعضها وراء البعض الآخر كما نكتب
النثر العادي فماذا يتغير ؟ اين فيها ذلك النغم الجامع الذي يطير بك إلى
فضاء التخيل الحالم ، بل اين فيها التعابير التي لم يبرها الاستعمال وينصلها
الابتدال ، واين الالفاظ التي تلتقي في تركيب طريف او تؤلف في
وقعها نغما يهمس ويوحى ، واين الكناية التي تشير ايماء وخطفاً إلى القصد
البعيد ، واين الصورة المكوكة التي تجتذبك كالسراب وتنسيك انك

من تراب ... فبقدر ما خلق الريحاني في نثره فطوعه ولونه وانقه وفكه واغنائه ، بقدر ذلك اعياء القبض على ناصية الشعر فأخفق فيه منظوماً ومنشوراً . واي امرىء ليت شعري قبض له ان يكون سباقاً في كل مضامير القلم . حسب الريحاني ان يكون صاحب مدرسة حديثة في التعبير النثري الحي سمت بالاسلوب الجاحظي الى الارجح .

ادب الرحلة

ان ادب الرحلة لون قائم بذاته مضى الغربيون به بعيداً من حيث المتعة والفائدة . اما في العربية فقد بقي في اول الطريق ، جامداً تنقصه دينامية الفن . هذا إن استثنينا احمد فارس الشدياق الذي شغلته الغرابات اللغوية عن الانصراف الكلي الى ادب فكه خلق له .

كانت غاية القدامى ، من امثال ابن بطوطة وابن جبير ، تدوين انطباعاتهم ومشاهداتهم في بلاد مجهولة . وكانوا يضحون بالمتعة في سبيل الفائدة . ابن بطوطة مثلاً كان ركيك التعبير ، ساذج الملاحظة ، كثير المبالغات . وابن جبير كان متحذلقاً في تنميقه البياني يغرق اللذة الادبية تارة في سجعه وتارة في استطراداته اللغوية على رغم دقته في النظر ولباقة في التعبير وموضوعيته في إبداء الرأي .

اما الريحاني فقد جمع الادب الحي إلى المادة الاخبارية الطريفة .

فحكى بأسلوب روائي مرح سلس ، حكاية أسفاره الطويلة في بلاد العرب يوم لم تكن تربط بينها اية وسيلة من وسائل المواصلات الحديثة . فجاءت رحلاته ، وهي تشكل الالم من آثاره في الانكليزية والعربية ، موسوعة متكاملة الحلقات تنطوي على كل علم وخبر ، من تاريخ الى جغرافية الى اقتصاد الى اجتماع ، بل شريطاً ملوناً ناطقاً ذا احجام يوه القارىء انه رفيق الرحالة يركب وراءه على ظهر ذلول او ضروس .

حتى في سرد الاشياء العادية عرف الريحاني كيف يكشف لها وجهاً جديداً ويخلق جواً يساعد على تبديد السأم . من عفوية في الحوار هنا الى مسارة حميمة هناك ، الى شمول في الوصف هنالك ، وتربط بينها جميعاً روح دعابة تدفع الى الاستزادة .

قصر الريحاني رحلاته على العالم العربي . لم يذكر شيئاً عن أسفاره في سائر العالم القديم ولا الجديد . ولعل رسالته العربية حملته على هذا الحصر . فقد شاء ان يعرف العرب الى العرب ليقرّب بينهم جميعاً ، لأن الانسان في طبيعته ، عدو ما يجهل . وقد شاء ايضاً ان يدل على مواطن الخير والشر ، والتقدم والتأخر ، في بلاد العرب بغيرة الرسول الموجه . ولعله اول من اشار الى موارد النفط في الشرق العربي ففتح عليها العيون ومهد لظهور الثروات الطائلة فيها .

وقد يكون خير ما كتب الامين في ادب الرحلات : « ملوك العرب » . و « قلب لبنان » . فما خصائص هذين الكتابين ؟ اولا وخصائص سائر آثاره في ادب الرحلة ؟

ملوك العرب

يقع « ملوك العرب » في جزئين . تناول اولهما الحجاز والحسين ، واليمن ويحيى ، وعسير والادريسي ، ولحج وسلطانها . ودار الثاني على نجد وابن سعود ، والبحرين وآل خليفة ، والعراق وفيصل . وقد درس المؤلف فيها ، بأسهاب ودقة وعمق ، احوال كل بلد وامكاناته ومستوى شعبه ، وصور ما رأى وأدرك ، وروى ما سمع وحدث ، ببساطة انيقة وقالب رشيق .

وهذا الكتاب ريبورتاج غزير المادة طريف النهج ، تجلت فيه خصوصاً قدرة الكاتب على السرد الطويل النفس على غير املال بقدر ما تجلت فيه دقة ملاحظته وبراعته في الاستنتاج والتعليل . وطريقته الكتابية هي الطريقة الريحانية المستكملة مقوماتها : سلاسة في العرض على فكاهة وتنوع وصفاء . لقد اراد ان يجعل من هذا السفر الضخم مرجعاً وثيقاً سهل المنال مغرياً لا يبقى زيادة لمستزيد .

في هذا الكتاب ، يقول الامين ، طائفة من الآراء التي تهم العرب

خصوصاً والاسلام عموماً والتي تهمل الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ويجدها القارىء في مكانها من البحث . اما الذين لا تهتمهم السياسة بقدر ما يهتمهم العلم والادب واخبار الاسفار . فقد خصهم بقسم مما كتب وقد اتخذ في ذلك اسلوباً يقرب من القارىء ما شاهد بعينه ، وسمع بأذنه ، ولمس بيده فيتمثله اذا تم القصد الفني حياً لديه^١ .

ألا تخالك تجالس الامام يحيى ، وتدخن القات معه عندما تقرأ في كلامه على سيد اليمن مثل قوله : « دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قائمه ، له فم كفم الطفل ، صغير بارز . الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روعة ، وله لحية سوداء قصيرة تخللها خيوط من الشيب ويلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ولعمامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية والى جنبه الوسائد يتكىء عليها وامامه زجاجة من

الماء ورزمة القات وخادم ينتخب الطري من غصونها ويقدمها له^١ .
اي رسم فوتوغرافي او زيتي يظهر الامام بشكل اوضح واوفى !لقد
اسهمت كل عناصر شخصية الامين ، من المصور الى الشاعر الى الخطيب
الى الكاتب الى المحدث الى السياسي الى الانساني ، في وضع هذا الكتاب
فجاء ممتعاً مفيداً .

قد يتبادر ، اول وهلة ، ان الريحاني حصر همه بملوك العرب وحدهم
بينما هو في الواقع تناول الشعب كافة على اختلاف طبقاته واقطاره ودرس
احوال القبائل الرحل والمقيمة ومستوى وعيها ، ووصف الطبيعة في تعدد
وجوهها . لقد كان في كل قطر يفتح الاذن دائماً لجميع الناس فيسمع
الشريف والبدوي والجمال والجندي والتاجر والسياسي ويدون احاديثهم في
اطار من انطباعاته الخاصة . وهناك بعض ما سمع من محمد رفيقه
الى حضرة الامام يحيى عن العقلية اليمنية :

« لا يزال اهل اليمن وعسير وحشين لا يثق الواحد منهم بأخيه ولا
يركن اليه ، حياتهم خوف دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير ،
وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضماها اليه . هم كالحوانات البرية
يخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، وقد رأيت بعينك ، الناس

كلهم مسلمون وكلهم يقاتلون ويقتلون لأمر طفيف، نحن نغار على حقوقنا .
ما قيمة هذا ، واخذ بيده فنجان قهوة ، ولكنه لي هو حقي . فاذا اخذته
مني ، اغتصبته وما سمعت احتجاجي ، اقاتلك استل عليك هذه الجنية ،
اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . اذا حدث قتال بين بيتين في هذه
القرية مثلاً ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في
القرية نار الحرب . وعندما تنطفئ يتساءلون ما السبب في القتال بين
فلان وفلان ، يقاتلون اولاً ثم يستعلمون : هذه طريقتنا في اليمن .
نحارب حتى اهلنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن ابيه . فاذا كانت هذه
حالتنا بعضنا مع بعض فكيف تكون حالتنا مع الاجانب ؟

انه يسجل على غير محاباة كل ما يسمع ويتحقق صحته ، فهدفه من
الكتاب ما كان استدرار نعمة سلطانية ليجعل من التقريظ رائده بل
شاء ان يعرف العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات
والسطحيات . فليس في الثناء في ما كتب تولى او مداهنة ولا في النقد
تشيع او تحامل انما غايته القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على
العلم والخبر اليقين ، ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام واثارة الازهان^١ .

« ان لكتاب ملوك العرب اجل قيمة في ادبنا المعاصر ، فهو يعرفنا ما نجهل عن قومنا ، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم ، وعن ارضهم . يصف لنا العربي وشيمه وحرينه وهممه وصدقته وكرمه . يرينا ان الرياء لا يستطيع الاقامة تحت السماء التي تحتها نار ، فما يعيش في تلك الارض المرملة ، غير الصراحة التي يراها المتحضرين خشنة كحياة المتسمين بها -
عرب البادية ١ . »

انه وايم الحق ، قيم في غايته ، سائح في صيغته ، لا يعوزه إلا تجانس اكثر في بعض فصوله قد تبرره سرعة الاخراج . تفرغ من قراءته وانت واهم انك ترافق الامين كظله فتشاهد بنفسك البادية واهلها .

قلب لبنان

اما قلب لبنان فهو جولات كتابية ، في صميم بلاد الارز ، دونها الريحاني واهداها الى صديقه الحميم شارل قرم صاحب « الجبل الملهم » ولكنه مات قبل ان يتمها .

تقرأ قلب لبنان فاذا انت فعلا في قلب لبنان ، يرافقك الامين في

١ مارون عبود : امين الريحاني .

اوديته وسهوله وجباله ، يشير الى مواطن الشعر فيها وموحى الجمال ،
ويكشف لك عن الاحقاب الغابرة وما حملت في تواليها من فتوحات
ومدنيات فعلت في شخصية هذه البلاد واغنت تراثها الحضاري . وتسير
مع الريحاني آمناً راضياً ، لا تمل حديثه اللبق الرشيق ، فتجد في «قلب
لبنان» كل ما شأقتك معرفته عن احوال هذا البلد وسكانه وعاداته وتقاليده
بالامس واليوم . تعرف هذا وكأنك تعيشه ، لأن الامين ، الدقيق
الملاحظة ، اجاد تصوير كل قرية ووصف لهجتها وخصائصها اجادة خلقت جو
القرية الحقيقي حياً طليقاً يفرض نفسه . يحدثك عن محبوب المنكاري
والاخ حنا مثلاً فتتمثلها بين يديك ويصف لك اعياد القرى وافراحها
فتخالك ترقص فيها .

اما اسلوبه الكتابي فجاحظي بسيط انيق تميزه النكات القارصة وتنوع
الغايات ورشاقة التخلص . « ليس من اغراض هذا الكتاب ، وهو كتاب
اسفار ومشاهدات ، سرد الاخبار الشخصية او العائلية ولكننا نحدثك
ونحن سائرون بما فيه من عبرة او ذكرى ، ونروي من الحوادث التاريخية
الخاصة او العامة ، ما لا يخلو من فائدة او تفكهة بل نزيد على ذلك من
حين الى حين ، عندما نقف في التيار نستريح . فاذا كان هناك مشهد
جميل وصفناه او اثر قديم استنطقناه ، واشرنا الى الطريف من ماضيه . »

« انها طريقته في جميع جولاته الكتابية :ابحاث متفرقة ، مختلفة المواضيع
يربط بينها نفس الريحاني الذي يدفق ايماناً بأجناد بلاده واهلها على غير
تعصب قومي او تقرير حدود . » فالفينيقيون ولا نكران ، هم رواد الحضارة
في قديم الزمان . وقد مهدوا السبل ، بما اوتوا من حذق وذكاء ومن
شجاعة واقدام ، لمن جاء بعدهم من الأمم التي فاقتهم رقياً وعمراناً .
والفضل للمتقدم » .

وفي هذا الكتاب ، تجد بين الحين والحين مقاطع شعرية بليغة الالحاء
مستمدة من صميم الارز ، والصخور : « رفعت حجراً من حجارة الطريق
الى فمي فقبلته ورعا حاملاً آملاً قبل ان دخلت الظلال القدسية . واستغفرت
الارز لامتهاني حرمة عزلته ، هذه العزلة الفريدة في اعالي الجبال ، فوق
وكر النسور ، وراء حجب الآفاق . استغفرت الارز لأنني جئت
استكشف مكنون سره » . وتجد تمثلاً وثيقاً برينان يتجلى في تلك
التعالييل المنة الهدامة التي يلبسها طابعاً علمياً شفيفاً يتراءى خلاله التهمك
الفتاك .

قد يعوز هذه الجولات الادبية احساناً صقل اوفى في الاسلوب ،
واستحكام اوثق في اللحمة ، وتعمق ابعد في حقائق التاريخ . ولكنها
مأخذ لا تضير فصولاً لم يقيض لها الانجاز .

ان «قلب لبنان» ليبقي «مع ملوك» العرب في طبيعة آثار الامين . وان فيه من رصانة البحث على متعة النهج ، ومن بروز الشخصية على غير اجهاد ما يضمن له الحياة ، كل الحياة .

وهذا رأي لميخائيل نعيمة فيها وفي « قلب العراق » :

اما وقد قرأت ملوك العرب في نصيه الانكليزي والعربي وقرأت قلب العراق وقلب لبنان فيقيني ان الرمحاني سيحيا في آدابنا وصافا ورحالة قبل ان يحيا مصلحاً اجتماعياً وسياسياً ، او شاعراً او قصاصاً فهو في رحلاته عين صافية تصور لك اهم ما تقع عليه من امور في ادق ألوانها وظلالها . وهو الى ذلك فكر ثاقب يجيد تنظيم ما تصوره عينيه ، وتنسقه وتعرضه في اطرار تتناسب ومعانيه وألوانه . ثم انه يستعين في كل ذلك بما اوتيته من شعور الشاعر وذوق الفنان واتزان الناقد وسخرية الساخر . فلا يهزل في مكان الجد ولا يجد حيث لا ينفع الا الهزل . لذلك ترافقه في امعان فلا ينكر لك فكر او عصب ولا تمل لك عين او اذن ولا يتسرب الى قلبك اي اشمئزاز او سأم . بل على العكس تنتقل من متعة الى متعة ، ومن وليمة الى وليمة ، كل ذلك وانت جالس في كرسيك او مستلق على سريرك ولا تنسف الريح في وجهك الرمال ولا تشويك شمس الدهناء ولا تجرح يدك او رجلك صخور وادي الجماجم او

اشواك جبل الارز .»

الخطيب

عرف الريحاني خطيباً بليغاً بقدر ما عرف كاتباً . فقلما اعتلى اديب منبراً اكثر مما اعتلاه هو ، محاضراً مرة وخطيباً مرات في لبنان وفي اميركة وفي انكاثرة وفي سائر البلدان العربية . اديب ملتزم عاش القضايا التي دافع عنها فأعلن رأيه للجمهور بدون مواربة ولا تحفظ .

اسلوبه في الخطابة اسلوب شخصي لا يختلف عن اسلوبه الكتابي العادي إلا بما يقتضيه هذا اللون تارة من تزايد وتأكيد وتارة من تلميح وإيجاز . وكان يضيف عليه طابعاً خاصاً عن طريق المقابلة والتوازن .

« اطلبوا الحرية الروحية التي تحصنها الآداب قبل الحرية المدنية التي تتاجر بها الاحزاب . »

« بدون الناموس يستبد الحاكم ويوغل في الطغيان وبدون التهذيب يستبد الشعب ويمعن في العصيان . »

« الحرية جمال يزدهي في اعمدة الصحافة واندية الامة . الحرية عبد انسى التجار اشغالهم والاتقياء فروضهم وانفاسهم . الحرية آلهة هجرت الامة معابدها لتعبد لها . »

وكان الى هذا يتجنب الصيغ المحنطة الطنانة والقوافي الجافة . وكان

يستمد من وحي الساعة موضوعاً طريفاً ينفذ منه بأسلوبه الزئبقي الى صميم المعضلة الاساسية التي يعالج .

الخطابة لدى الريحاني وسيلة تعبيرية كان يلجأ اليها كما الى سواها لبث دعوته الاصلاحية . تثور نبوته فيها او تتزن حسبها تقتضي المواقف ، لكنها تتم دواماً عن اقتناعه الاكيد بما يقول . يؤكّد ذلك جيشان حيويته ساعة الكلام فكان كل لفظة بل كل ايماء تتمخض عن شعوره الباطني .

وكان يتوجه الى عقل سامعيه عن طريق الحس فيورد الامثلة الواقعية والاستعارات الموحية ويتعمد السجع المحكم الايقاع ، ويبرز الوقائع متساوقة التسلسل ظاهرة الخطوط ويدفعها دفعاً حثيثاً حتى اعماق وجدانهم لينال منهم ما شاء من اقناع مكين . واخلال ان لمهارسته التمثيل المسرحي يداً في تعزيز طاقته على الاقناع اذ دربت القاءه ولهجته وجعلتها طبعين يتلاءمان والفكرة تلاؤم الحمر والماء ، فكان ممثلاً مصوراً ، وشاعراً خطيباً في وقت واحد . ولم يدرك عليه الا بعض قصور في حلبة التجويد اللفظي كانت تخفيه حرارة الايمان التي يثير في الحضور .

كان الريحاني يقيم حواراً بينه وبين سامعيه في تساؤله المقصود وذلك لكي يشعرهم انه ينطق بلسانهم ويجسد انفعالهم .

« جبالنا المقدسة ! ايهجر بنوك حقول السكينة فيك ليتلو ثواباً وساخ

السياسة واوحالها ! ايهملون ارضك فتصير بورا ، وغاباتك فتصير صخوراً
حباً بمنصب في الحكومة يذل النفس ويفسد الحياة ! الى الحقول اخواني ،
الى الحقول ! ليرع كل منا خويصة نفسه ، ليشغل كل منا عن اصلاح
الناس باصلاح شؤونه . ليتعهد ارضه بالحرثة والتربية ، فيصطلح عندئذ
لبنان ، ويصطلح شعب لبنان ، وتصلح حكومة لبنان .
لقد طغت النبوة الخطائية عند الامين على معظم شعره المنشور وعلى
بعض مقالاته الصحفية لا سيما في المرحلة الاولى من حياته ، مرحلة
الشباب والثورة .

تحليل اهم آثار الريحاني

بالعربية

الريحانيات

ان كتابي «نظرات» المنفلوطي في مصر و«ريحانيات» الريحاني في لبنان
ظهرا معاً في فجر النهضة الاجتماعية والادبية والسياسية في هذا الشرق
فجاءا ، وكأنهما على موعد ، ينفجان روحاً تحرورية جامحة في ابناء فجر
هذا القرن ويوجهان طموحه .

والريحانيات في الاصل ١ مجموعة خطب ومقالات وضعت في ظروف

١ صدر في الاصل اربعة اجزاء وبقيت اربعة مخطوطة ثم اعاد طبعها البرت
الريحاني (شفيق الامين) ففصل المقالات الاجتماعية في جزئين مستقلين عن الخطب
القومية التي جمعها في جزئين اطلق عليها اسم « القوميات » . اما الشعر المنشور
فقد صدر في « هتاف الاودية » واما المقالات النقدية ففي « ادب وفن » واما
الدراسات التي تتناول شخصيات بارزة فقد ظهرت في « وجوه شرقية وغربية »
واما الحكم المتفرقة فقد استقلت وحافظت على اسمها « بذور للزارعين » .

مختلفة تعبر عن رأي صاحبها في اصلاح الفرد والمجتمع وفي سنن الطبيعة والحياة . انها خطرات من حصاد الزمان والاختبار الشخصي لا تربط بينها صلة معنوية ولا تنتظمها سلسلة محكمة الحلقات ، اللهم الا فكرة التحرير من الجهالة والتعصب والتقليد والحمول في تسلسل منطقها بالنسبة الى ما تعلمه صاحبها على يد الثورة الفرنسية والتقدمية الاميركية . تقرأ فيها هنا مناجاة رومنطيقية للطبيعة الام (وادي الفريكة او جسر بروكلن) وهناك نقداً ساخرأ ساماً للعوادات السخيفة والمجاملات والبراقع الموسمية ، وهناك تعريضاً بمدنية الغرب ، مدنية الكهرباء والبخار وحب الذات والاستئثار التي ثارها اليأس والانتحار ، كل ذلك على الطريقة الجاحظية الفكهة الملقحة بسخرية فولتير والعنفوان النيتشوي « قد يأتي يوم يشاهد فيه ابناء الارض رجل المستقبل العظيم وقد ترققت فيه القوى الحيوية الى منتهى الدرجات » .

واحسب ان اهم ما انطوت عليه الريحانيات في اجزائها الثانية هو نظرات الريحاني الفلسفية ، ومحاولاته في الشعر المنشور ، وانتفاضاته في سبيل التحرر القومي . وقد تناول المادتين الاوليين فصلان مستقلان من هذا الكتاب . اما المادة الاخيرة فهي زبدة الخطب السياسية والاجتماعية التي كان يلقيها الامين في المناسبات الطارئة فيرتفع فيها غالباً من الخاص

الى العام ويربط الحدث العابر بالنواميس الانسانية الشاملة ويبقى له طراوته على الغالب رغم زوال المسببات .

ان اكثر الافكار الاساسية التي استندت اليها هذه الخطب هي من وحي تعاليم الثورة الفرنسية : الاصلاح الحقيقي هو الاصلاح الجذري لأن الثوب البالي خير من الثوب المرقع . والحرية السياسية تبقى عقيمة ان لم تركز الى الحرية الروحية وليدة العلم الصحيح والتهديب . والمدنية الحققة تقوم على العدالة الاجتماعية والمساواة . والشعب الامثل يعي تبعته الانسانية ويعمل على تحملها بحزم واباء . والثورة ضرورة تاريخية تفرضها سنة النشوء والارتقاء الازلية . « والثورة الحقيقية تبدأ فكراً وشعوراً ولا يبقى من آثارها بعد ان تمر ، الا ما كان منطبقاً على ما نضج في النفس والعقول . بل لا ينمو من بذورها الا ما وافق التربة التي تزرع فيها » اما التعصب والخوف فهاتوا ما الجهالة والتقليد .

اما جزءا « الريحانيات » الاخيران فتضمنا بحوثاً شتى كالجزيئين الاولين ، من مقالات تبسيطية الى محاضرات الى مرث ، الى خواطر وحكم الى شعر منشور ، لا يربط بينها اي رابط معنوي . فبينما انت مثلاً

تقرا عن الجوامع وما توحى بساطتها من خشوع وتأمل ، اذا بك فجأة في الاندلس ترافق الامين في زيارات « مقامات كان لها من السرور ايام زاهرة ومن المجد اعلام وقباب ما تبقى منها اليوم غير قصور متهمة نبتت في جدرانها الاعشاب ، ونظم العنكبوت مرثاته فوق النوافذ منها والأبواب ، وجلس في عروشها العالية السكون » . او اذا بك تعود بالماضي اعواماً فتسرح معه وتمرح في « حقول الفتوة » او تطير الى نيويورك او الى مصر او الى العراق ورفيقتك مؤنس يبدد عنك الضجر . الاسلوب الكتابي فيها ازداد به تماسكا وشخصية . والنظرات الفلسفية اكتسبت شيئاً من التجانس فاذا هي في معظمها دعوة الى التوفيق بين مدنيتي الغرب والشرق ، ودعوة الى نبذ الفواصل العرقية والجغرافية والوهمية التي تفصل بين بلد وبلد رغبة في تحقيق التعاون الانساني لأن الناس على اختلاف الوانهم ودولهم انهم « إلامة واحدة تجمعهم جامعة الآداب والفنون ودين واحد شامل قوامه الابوية الالهية والاخاء العام » .

تاريخ نجد الحديث

يتناول احوال نجد في ماضيها وحاضرها كما يتناول سيرة السلطان السعودي بتفصيل وتحليل وقد استقى الريحاني الاخبار من مصادرها

العليا فأثبتها واكملها بعض من ذوي العرفان .

تضمن هذا الكتاب نبذاً ثلاثاً تخللتها الخرائط والرسوم . دارت اولها على نجد في تاريخها وجغرافيتها . والثانية على تاريخ محمد بن عبد الوهاب والروهابية . والثالثة على تاريخ آل سعود منذ نشأتهم حتى استيلاء محمد بن الرشيد على نجد . اما الخاتمة فقد اشتملت على سيرة عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

في المقدمة حاول المؤلف ان يقارن بين ابن سعود ومعاوية والمأمون وصلاح الدين الأيوبي فأدت به المقارنة الى تفضيله عليهم جميعاً ، رغم علو مكانتهم ، لأنه تمكن دونهم من ان يجمع شمل الجزيرة .

ولا يختلف الاسلوب الكتابي ههنا عنه في « ملوك العرب » فهو اخباري ، فكه ، غزير المادة ، انما يشوبه احياناً بعض جفاف علمي اقتضاه التوغل في مجاهل التاريخ . ولربما احتاجت وثائقه الى مزيد من التنقيب والتعليل على رغم امانة المصدر .

عبد الحميد

مسرحية تمثل تعظيم عبد الحميد حتى في سجنه . وقد انجزها في سنة ١٩٠٩ ومثلت ، اول مرة ، على المسرح الجديد في بيروت فلاقت نجاحاً فريداً لأنها افرجت عن حقد كبتته الصدور منذ اجيال .

« ألا تعلم أن من يقتل البشر بالمئات تعد له الأمة القصور الفخمة ،
تهابه وتكرمه . ومن يقتل الناس بالالوف تمجده ، وتنصب له التماثيل .
فمن انت بالنسبة الى هؤلاء السفاكين الكبار ليخطر في بالك الاقامة
معهم » .

بهذه اللهجة العنيفة يرد احد المساجين على رفيق له سأله لماذا لا يسجن
السلطان المخلوع في سجنهم .

إلا ان حيدر باشا احد العبيد الخانعين بالامس ، الذين شربوا دم
الابرياء من اجل عبد الحميد لم ير رأي الأمة بل ثار على الشرع الذي
قدس شخص الطاغية وداس التقاليد التي ترفعه على حساب كرامة الشعب
ودخل قصر الاتني (سجن السلطان) واطلق بوجه الجبار عنان النعمة
الموروثة التي اخفاها الارهاب في اعماقه منذ ان فتح عينيه على الحياة :
« مكانك يا عبد الحميد ! اود والله لو تجسدت فيك هذه الشرائع ،
وهذه العادات ، وهذه الانظمة والقوانين كلها فأشد على عنقك بيدي ،
واربع العالم منك ومنها معاً » .

انه الرمحاني نفسه يتلبس شخص حيدر ويعبر بلسانه عن الثورة
الكامنة التي انتظرت نفاخاً يثيرها لتقضي على كل ما يذكر بذلك العهد .
فمحو عبد الحميد هو محو كل ما يرمز اليه من استعباد وظلام كما كان هدم

الباستيل واعدام الملك في الثورة الفرنسية ، هدم مراتع الظلم واعدام
التفاوت بين طبقات البشر^١ .

زنبقة الغور

قصة اخلاقية اجتماعية طويلة دارت وقائعها في فلسطين . فيها حب
ينتفض ثم يخيب ، ورجال دين يحيدون عن الواجب . وفيها صرخة بؤس
ورعشة الم . انها خليط من مآسي الحياة حاول المؤلف ان ينسج منها قصة
فنية فأخفق . وإذا زنبقة الغور اقرب الى الحكاية المتشعبة العقد، المتعددة
الفصول على كثرة اشخاص منها الى الرواية المركزة الموضوع المحكمة
التسلسل المنطقي ، البارزة الابطال . اسلوبها الكتابي ركيك على الغالب
تطغى فيه الاستطرادات الغريبة والتفاصيل النافلة على اللوحات الحية
والحوار الرشيق والتحليل النفسي المعمق .

النكبات

بحث شعري اوجز فيه الريحاني تاريخ البلاد السورية في مختلف العصور
فحمل ، بتهمك لاذع ، على التغني العقيم بذكر الجدود طالباً الى الابناء ان

١ نشرت دار المعارف المصرية في مجموعة « سجل التوبة » سنة ١٩٥١ مع
اقاصيص اخلاقية سلسلة السرد وواقعية المنطق ، عميقة المغازي .

ينصرفوا الى تسوية مشكلاتهم اليوم واعداد عدة الغد . وحاول ان يبين
بشكل خطابي ، ان هذه البلاد التي كثيراً ما نتغنى بأمجادها ، ما كانت
في جميع عهودها الا مسرح استعباد مثل عليه الفاتحون ، من اشوريين
وفرس ويونان ورومان و صليبيين واتراك ، مأساة أليمة كان ختامها
نشيد الانتداب .

اما اسباب النكبة الموصولة التي حلت بسوريا فيعزو اهمها الى عدم
التجانس الاجتماعي^١ والتعصب الطائفي واضطهاد الاقليات فضلا عن
الاستسلام لسنة المجهود الاقل فدعا الى نبذ العصبية انى كان مصدرها
والى التكتل الوثيق في كنف الوطن .

انتم الشعراء

بين التأثيرات التي حملها الريحاني من البيئة الغربية الرجولة في التصرف
فكان ينفر من التواكل الشرقي والميعة الشرقية حتى في الشعر . لذا آلمه
انصراف الشعراء العرب الى الندب والبكاء والعويل عوضاً عن الاسهام
باثارة الشعور القومي الصحيح وقد اراد الشاعر رسولا بوجه بيئته وينفث
في صميمها العزيمة والثقة بالحياة . فعبر عن نظرته هذه في غير مقال

١ اقترح الزواج المدني كحل للمعضلة .

وخطاب^١ حاملاً بعنف على الشعر الباكي والألم والدموع وعلى الشعراء ذوي القلوب اللينة المترهلة التي تذوب كلما ناح الحمام أو اهتز الورد في الأكام . فهو قد شفي والحمد لله من رومنطيقته وجارى عصر الحديد والكهرباء بعد أن أدرك أن حاملي القلوب الحانقة الذائبة اعجز في المحن والنكبات من فراخ القطا واجبن من صغار الارانب ، وبعد أن اكتشف أن الندب قد يكون مشتقاً من الانتداب ...

ولربما حمله على هذه الصرامة في اللهجة ، عدا تبرمه بالانتداب في لبنان ، شعوره الباطن بالنكبة الفلسطينية ووقوف الشعراء والادباء العرب موقف المتفرج منها ومن الانتداب بل موقف السكران لرنه عود ناسياً عويل الجياع ...

وجمع سنة ١٩٣٣ بعض هذه المقالات والخطب في كتيب اطلق عليه عنوان « انتم الشعراء » اثار الاوساط الشعرية في لبنان فردت التحدي بكتاب غفل عنوانه « اجل نحن الشعراء » عارضت فيه الامين حتى في عناوين فصوله وخصائصه الطباعية . واحتدم من ثم الاشتباك القلمي في

١ القى بعضها في مدرسة البنات الاهلية والجامعة الوطنية بعاليه والجامعة الاميركية .

الصحف والمجلات يخوضه كل ذي علاقة وكل طالب شهرة . وقد وضعت مجلة « المشرق » عدداً خاصاً لهذه المناسبة حالت فيه الكتابين كليهما آخذة جانب الدفاع عن الشعراء بشكل رصين .

واسمى تأويل الفكرة التي اوحى الى الامين نغمته على الشعر الباكي فقال بعضهم انه الحسد مجدو الفاشل في الشعر على الانتقام من البارزين فيه ، واكد بعضهم ان عداوة شخصية يكنها امين الريحاني لأحدهم سولت له ما كتب ، وكثر التعليل والاستنتاج . ويبدو ان نظرة الريحاني الى الوجود والانسان هي التي وجهته هذا الاتجاه فهو يأبى الحياة الا جهاداً موصولاً ويأبى الادب الا التزاماً مستمراً ويأبى الرجولة غارقة في ميعة مقيمة واستبكاء على الطلل .

قلب العراق

لم يستوعب « فيصل الاول » كل ما اراد الريحاني تدوينه عن بلاد الرافدين فأتبعه بكتاب « قلب العراق » . وقد تناول فيه جغرافية هذا البلد الشقيق وتاريخه منذ غزوة هولاكو حتى يومذاك . جاء الكتاب في ثلاثة اقسام تخللتها خرائط وصور . دار اولها على بغداد بوجه عام . والثاني على الآثار القديمة وغزوات الاثريين الاجانب « خير للعراق ان تبقى آثاره مدفونة في ارضه من ان تطير الى ما وراء البحار » . والقسم

الثالث تحدث عن النهضة في جميع وجوها الثقافية والادبية والاجتماعية
والشعرية وعلاقته الريحاني بأدباء العراق ولا سيما الرصافي .

رسائل الريحاني

الادب العفوي الحميم هو الادب الذي يبقى ، لأنه مسلوخ من اعماق
الذات . انه نداء من قلب الى قلب . والرسائل طليعة مثل هذا الادب
الحي لا سيما اذا كان صاحبها كاتباً من طراز رفيع يطل على آفاق كل
ثقافة وكل محيط ، كما هي حال امين الريحاني .

لا اغالي اذا قلت ان رسائل الامين ، التي جمعها ونشرها اخوه البهرت
هي من اروع آثاره .

من ميزات هذه الرسائل انها رشيقة انيقة على طرافة وطبيعة ومرح
فالسخرية اللبقة التي عرف بها الريحاني لا تكاد تغيب عن صفحة واحدة
من صفحات هذا السفر الضخم . والشهادة الصريحة لمجتمعه او عليه لا
يعوزها المنطق السليم ولا براعة التحليل على غير تعمل .

اي اديب ، لعمرى ، تسنى له ، في فسحة العيش ، ان يتصل
اتصالات الريحاني بمختلف الشخصيات والشعوب والاطراف والحضارات
وقد جاء في رسائله بزبد انطباعات وانفعالاته وخواطره حول هذه
الاتصالات . فمن رسالة بريئة بسيطة الى ابويه ، او اختيه ، او اخويه ،

الى رسالة عنيفة نارية لرفيق في الجهاد الاستقلالي، الى رسالة فكهة لأديب
جمعت به وحدة الشعور امام مشكلات الحياة ، الى رسالة لكبير مسن
قادة الشعوب العربية او الاجنبية عبر فيها عن رأيه الموزون بجرأة لا
تعرف المحاباة. كل هذه الرسائل التي يربط بينها الانشاء السلس، والروح
الخفيفة ، وصدق التعبير ، تشكل مرجعاً تاريخياً حياً لهذا النصف القلق
من قرننا الحاضر .

ولعل رسائل الريحاني اصدق مرآة لحياتنا العامة، في الشرق العربي
لا تعكس الظواهر وحسب بل تبين من خلال الظواهر حشد الملامبات
والتمخضات الخطيرة .

آثاره بالانكليزية

مسلك الرؤيا

فصول متفرقة تعالج القضايا الاجتماعية والروحية فتعزو اضطرابها في الغرب الى التكالب على الربح المادي . وترى طريق النجاة في طريق الرؤيا « حيث تجد النفس خلاصها في ما يعقل ولا يرى » .
ان فكرة الامين ههنا تفتقر الى الوضوح المعهود في سائر كتبه .
وقد يكون الطابع الشعري الذي اخرج فيه نظريته هو ما جعلها تتخبط في الغموض « البلايكي » فتأرجح بين تحديد للجوهر الإلهي في الحياة وبين اقتران عقلي روحي وبين دعوة الى الكمال الروحاني ، على غير لمة منطقية ولا تسلسل معنوي .

وبين الموضوعات المتنوعة الكثيرة التي تتطرق اليها هذه الفصول
موضوع الحرية الروحية التي هي حجر الزاوية لجميع الحريات بدليل ان
ابكتانوس كان حراً ، في عبوديته ، وكذلك سقراط في سجنه ، والمسيح
على الصليب ، وموضوع الوطن ونظرة الغربيين والشرقيين اليه « الغربي
يعتقد انه جزء من الوطن او الدولة والشرقي يعتبر نفسه جزءاً من الكل » .
وموضوع الأقانيم الثلاثة المتحدة : الشعر والموسيقى والتصوير .

انشودة المتصوفين

مجموعة شعرية اوحى بعضها اغتراب الشاعر في عالم الناس وتوقه الى
اللانهاية وبعضها ذكريات غرامية تمتزج بشعور الحنين الى مراتع الصبا في
لبنان .

الريحاني في هذا الديوان « شاعر ينطق بتموجات فكره ونبضات
قلبه ، فحيثما تسمع لقلبه نبضة تجدد في شعره جمالاً وتسمع له رنة وتأني
على آخر القصيدة شاعراً انك قد اقتربت خطوة من الشاعر ولمست جانباً
من كيانه^١ » .

وقد كتب هذه القصائد بوحي من الجو الأميركي بُعيد الحرب وقد

١ ميخائيل نعيمة

هبت عليه نفحة صوفية عذبة من الشرق تبسّم النفوس المتقززة حبال
وحشية الانسان . وهو الوحي عينه الذي امد جبران في « نبيه » .

تحدّر البلشفية

حاول الريحاني في بحثه التاريخي العلمي هذا ان يرد نشوء البلشفية ،
تلك الحركة الفكرية الثورية ، الى الشرق « منبع كل خير وشر » .
وتأييداً لنظريته عرض للحركات المختلفة التي قامت خلال التاريخ في بلاد
الأنبياء وكان لها بالشيوعية صلة قريبة او بعيدة . فمن المزاكية الى
الحوارج الى القرامطة الى الحشاشين ، انتقل المؤلف الى حركة المتنورين
التي قام بها ويسهاوبت واشياعه في ألمانيا في اواخر القرن الثامن عشر ،
وسعى الى اظهار الوجوه المشتركة بينها جميعاً . اما علاقة هذه الحركات
كلها بالبلشفية فهي ، على حد قوله ، اتفاقها الجوهرى حول التردد على
النظم القائمة التي تكرر التفاوت بين حقوق الشعب وموجباته . وهو
يذهب في متعاونة واستقرائه وتعليقه واستنتاجه الى ابعد من هذا فيقرر ان
كل الحركات التي ذكرها متشابهة في الأصل انما تختلف شكلاً ، فيخلص
الى القول : « ان البلشفية كسائر الثورات الإصلاحية التي سبقتها ، عاصفة
تهب حيناً ثم تهدأ بعد ان تورث النتائج الحسنة اذ الأمة التي تخوض عباب
ثورة تكسب قوة ادبية وروحية توازي ، بل تفوق ، ما تخسره من

جهان

رواية اجتماعية ^١ اخلاقية مسرحها تركيا الغارقة في التعصب والجهل .
صور فيها الريحاني ما تعانيه الفتاة من اضطهاد وضم اذا حاولت التحرر
ناهجة نهج رفيقتها الاوروبية . ونجسها لقساوة الواقع اختار امين لقصته
صفحة من اشد صفحات التاريخ العثماني سواداً ، اختار العهد الذي وصل
الالمان فيه الى فروق بعد نشوب الحرب الكونية الاولى وسخروا اداة
الحكم لمصلحتهم ، فوقفت تركيا بين نارين جامحتين ، نار خصومها ونار
اعوانها . وفي هذا الموقف الحرج ظهرت بطله القصة ، جهان ، وهي فتاة
راقية تجندت للدفاع عن حقوق المرأة التركية وعن كيان بلادها المهده ،
وقد طلقت زوجها لاشراكه بها ثم حاولت ان تتزوج من غيره لتنجب من
ينقذ وطنها . غير ان الاقدار تحذها فيغتصبها قائد ألماني احبها فتقتله بعد
ان تكون حملت منه طفلاً المنشود .

لهذه القصة غايتان غاية اجتماعية تدور حول تحرير المرأة والتساهل
الديني وغاية سياسية تقوم على اظهار السيطرة الجرمانية على الاتراك . اما

١ ترجمها الى العربية عبد المسيح حداد .

الاسلوب فقريب المنال ، عصبي اللهجة ، يفتقر احياناً الى التسلسل المنطقي وعمق التحليل ووحدة السياق .

خالد

رواية اجتماعية تتناول الثورة الروحية والمثل الاعلى في حياة الفرد وتصور عقلية اللبناني او السوري المهاجر وخصائصه وعاداته وامكاناته . هذا الكتاب درس اجتماعي ، قصصي القلب ، يصور نفسية المهاجر السوري او اللبناني ويحلل اخلاقه وعاداته في الغرب . وهو ثلاثة فصول عناوينها : في السوق - في الهيكل - في كل مكان . يبدأ كل منهما بنشيد يرمز الى مغازيه . في الاول نداء للانسان جاء فيه « مهما جزل خيرك ومهما تفاقم شرك ، لا ازال اخاك . مهما علت في مدارج الحياة ومهما تسفلت لا ازال اخلص لك واؤمن بك واحبك » .

وفي الثاني صلاة للطبيعة « ايتها الام الازلية السماوية الجهنمية ها انذا امامك اخر ساجداً عند قدميك ، اسلم نفسي اليك ... عانقيني واهمسي في اذني بعض اسرارك ، املئي حواسي وكياني من نفحاتك ونسماتك . افتحي امامي اعماق روحك يسر الي بعض ما فيك من قوة وعظمة وجلال » . وفي الثالث استغاثة ملهوف مخيب بربه « عبثاً طلبتك ايها الرب الاله في اديان الناس ، وعبثاً بحثت عنك في سرادب عقائدهم » .

بطل الرواية شاب بعليكي قصد وصديقه الى نيويورك فأقاما فيها
يبعان « بالكشة » ويدرسان عن كتب عناصر المدنية الاميركية . ثم
عاد الفتى المتأمر ك الى بلاده مشبعاً بروح التحرر فأعلن رأيه صريحاً في
الدين والمجتمع والناس ، فجر عليه نقمة الاتحاديين ، بصدد سياسة الشرق
الثورية ، وسخط الاكليروس ، بشأن حرية المعتقد . انه يمثل المهاجر
العصامي الذي ينظر الى المدنية الشرقية بعين الغربي فيتعنى لو تنتشر
العلوم ، والصناعات الحديثة في بلاده . وينظر الى الحضارة الغربية ، بعين
الشرقي ، فيركز بالروحانيات وبالاقلع عن التكالب . انه مسيحي
المولد ، شرقي الصبغة ، اسلامي اللهجة ، يعرض آراء الريحاني نفسه ،
يركز بجرأة الرسول فيبدي اعجابه بالشعب الاميركي النشط ويتوقع
له مركز السيادة في العالم رغم تنديده ببعض تصرفاته وبانجرافه مع
التيار المادي .

انها معظم الافكار المبعثرة في « الريحانيات » تأتلف هنا وتتسجم
على نوع ما ، فاذا المدنية المثلى مدنية متزنة حرة توازي فيها العقل والروح
واذا الفرد الامثل ذلك الذي تحرر من التعصب والجهل والتقليد وصهر
في ذاتيته ميزات العالم الغربي وفضائل المتصوف الشرقي .
« للشرق والغرب ارنم - للنهرين العظيمين اللذين بهما ينتعش الانسان

ويتقوى ويتطهر جسداً ونفساً . لكيها اغني وبها افتخر ، ولها اوقف حياتي ، ومن اجلها اعمل واتأمل واموت . اخواني ان اعظم الناس ارتقاء ليس اوروبياً اسيوياً بل هو يختار من مزايا هذا وذاك ما يكون النابعة الغربي والنبي الشرقي . اعطني يا شعوب الغرب القويمة لوازمي المادية في هذه الحياة ! وانت ايها الشرق ! يا بلادي ، اشركيني بميراثك الروحي » .

نجم الريحاني ، في هذه الرواية ، بتوفيقه بين المبني والمعنى فجاء اسلوبه شعرياً في مواقف التأملات الروحية واخبارياً في مجال السرد الواقعي ، وخطابياً ساعة محاولة الاقناع عن طريق العقل والعاطفة معاً . انما يؤخذ عليه احياناً شيء من التكلف في انتقاء الالفاظ النادرة الاستعمال ويؤخذ على قسمه الاخير بعض الاضطراب في اللمعة والتقلقل في تسلسلها المنطقي .

اما الاشخاص فأحياء ، على الغالب ، يعيشون في بيئات حية كذلك ، بارزة الطابع المحلي ، لكنهم يسرون احياناً طوع هوى المؤلف ، ولا سيما ساعة يسترسلون في العظات الطويلة ، فلا تتمالك ان تسأل نفسك هل انت تصغي الى خالد ام الى الامين يخطب . انها الذاتية الغامرة عينها التي سيطرت على جبران في اقصيصه سيطرت هنا على رواية الريحاني التي

تتماز مع هذا ، عن نتاج صاحب « النبي » الروائي بواقعية الوصف ودقة التحليل النفسي .

ابن سعود وشعبه وبلاده

لخص فيه الريحاني ما كتبه عن جبار الجزيرة في كتابه « ملوك العرب » و « تاريخ نجد الحديث » و اضاف اليه اشياء جديدة تهم القارىء العربي . وقد استهله بتوطئة ابدى خلالها اعجابه بالسلطان السعودي ذلك الاعجاب الذي اوحى اليه ما كتب وقد جاء فيها « بنيتم يا طويل العمر البيوت للبدو فكانت الخطوة الاولى في سبيل تمدينهم فعسى ان تخطوا الثانية فتنشئوا لهم المدارس . ان في المدارس تحقيق غاياتكم لأنها تكمل عمل السيف وتسهل وحدة الجزيرة العربية » . وتناولت الفصول فيما تناولته الرحلة الريحانية في تفاصيلها وانطباعات المؤلف في مقابلاته مع ابن سعود وفي مشاهداته اثناء التنقل كما تناولت خواطره وتعليقاته حول مذهب الاخوان ومجالسهم وعاداتهم وغزواتهم وخصائصهم باسلوب بسيط منوع لا يختلف عن اسلوبه العربي إلا بقدر ما تقتضيه طبيعة اللغة . فالاستطرادات كثيرة متشابكة والانتقال من موضوع الى موضوع لا يدع للملل مجالاً للتسلل اليك . فبينما الكاتب يحدثك عن الخطة السياسية التي اتبعها ابن سعود في اتصاله بالانكليز والقبائل المجاورة اذا به يملك

بدون تمهيد الى البادية يريك لئاليها المقمرة او يسر اليك بما عاناه من الحمى
في القصر السلطاني في الرياض او يروي لك حكاية ظريفة عن رجال القصر
وهم يكونون قمصان مليكهم لكأنه في سمر موصول مع القاريء يحدثه ،
دونما تكلف ، بما يخطر له من شؤون ومرئيات خزنها في حافظته عن تلك
الاقطار التي كاد يجهل الامير كيون والانكايذ عنها إلا اليسير اليسير .
وقد تطرق الريحاني خصوصاً في هذا الكتاب الى احوال نجد في
نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فرأى الاصلاح الفعلي موقوفاً
على امور ثلاثة ألح على السلطان بتحقيقها وهي : اخضاع البدو ، حملهم
على اعتناق مذهب الاخوان وتثبيتهم في الارض بعد تعليمهم مبادئ
الزراعة الحديثة وتثقيفهم .

حول شواطئ الجزيرة العربية

دون فيه وصف رحلته من عدن الى صنعاء والحديدة ودرس طبيعة
هذه البلدان ومظاهر عمرانها وتناول فنون البناء والشعر والادب وما اليها
وصور اليمنيين واخلاقهم وعاداتهم ومرافق عيشهم بجرأة ووضوح واعلن
اهداف زيارته وهي كما ذكرها للامام في صنعاء « ان يرى البلاد ويكتب
عنها ثم يتطوع لخدمة شعبها » . واخذت على هذا البحث بعض هفوات
تاريخية ناتجة عن سرعة في النتاج وتقريبية في التأويل فهو مثلاً يقول (في

الصفحة ١٨٦ من الطبعة الاولى) : « ان ذا نوّاس اعتنق الاسلام اولا
ثم كفر به ليدين باليهودية ، بينما اثبت التاريخ الحديث وفاة هذا الملك
قبل ظهور الاسلام . واخلال ان كثرة التصاميم الكتابية التي عزم الامين
على تحقيقها عن العرب ، على ضيق وقته ، اضطرته الى الاقتصاد في
التدقيق حول المصادر التاريخية والمقارنة بينها واختيار الاصح فضلا عن
ان هذه الناحية لم تكن اهم غاياته في رحلته وكتاباته وهو قد رام ان
يعرض صورة حية عما احس ورأى وفعل واكتشف في تلك البلاد فبلغ
اقصى مرامه وجعلنا نتمثل الرحالة في رحلته ورافقته خطوة خطوة كما لو
بدت المشاهد ملونة ناطقة على شاشة بيضاء شأنه في ذلك شأنه في نتاجه
بالعربية .

فيلسوف الفريكة

ما حاول الريحاني ان ينشئ مذهباً فلسفياً خاصاً ، متماسك التركيب متجانساً ، يتطرق لحل مشكلة كونية او حياتية معينة على طريقة جديدة انما كانت له نظرات فلسفية كسائر حكماء الشرق ، مبعثرة في آثاره ولا سيما « الريحانيات » ، يكون مجموعها نواة مذهب انتقائي توفقي فيه من الرواقية شيء ومن تقدمية الانسيكلوبيديين شيء ومن علمية رينان شيء ومن الحلولية الطبيعية اشياء . اصف الى كل هذا اختبارات الخاصة والجنون الاميركي والشرقي الذين عاش فيها ، وتأثراته بداروين ونيتشه وغاريسون وامرسون والبروتستنتية المتحررة .

الحلولية الطبيعية التي يدين بها الريحاني هي ، في خطوطها الكبرى ،

تلك التي نشأت في المدرسة اليونانية مع هيراقليطس ثم تولتها المدرسة الرواقية مع زينون الى ان طورها شيلنغ وروسو ورينان . انها تقول بأن الكون هو الحقيقة وان الله ليس الا قوة تلازم الطبيعة وتحركها بل هو روح الكون ينمو دواماً وبنموه تنشأ الكائنات طرأ .

يقول الريحاني فيما يقول : « شعرت بأن روح الوادي قد اتحدت بي وروحي قد اتحدت بالوادي ^١ » / يحاذر ابن الطبيعة امه ؟ ^٢ « هل الحجر الذي يتأجج تحت هذه الصفحة الحديدية منفصل عن القوة الشاملة المتفرعة في كل اجزاء المادة ؟ . ايكون في الكون قوة منفصلة كل الانفصال عن قوة اخرى ؟ نعم ان المادة تتجزأ ، ولكن حرك فيها القوة الكامنة فترتج وتتموج وتتأجج وتعود الى الفروع التي تنفصل عنها وتتصل بها من البدء ^٣ . التأمل يسمو بصاحبه الى ما فوق الدنيويات ويعقد بين خالقه وبينه ذاك الاتحاد الذي تتوق اليه كل نفس بشرية سامية ^٤ « اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الالهي الذي نسمي مصدره الاصلي إلهاً او خالقاً . وكلما درس الحكيم الطبيعة قرب من الناموس الرئيسي السائد في كل جزء منها ، وهذا الاقتراب من الناموس هو ما اسميه اتحاد

١ ريجانيات ج ١ ص ٣٢ ٢ نج ١ ص ٣٤ ٣ ج ١ ص ٥١

٤ ج ١ ص ٧٢

الانسان مع خالقه »^١ « ما هو الاتصال السري بين روح الاشجار وروح الشعراء والانبياء »^٢ . « إنا للطبيعة وإنا اليها راجعون »^٣ .

ان هذه النظرات المنشورة في الريحانيات نثراً عفويّاً تم عن محاولة تأليفية لا واعية بين مختلف وجوه التصوف في نطاق الحلولية الطبيعية ، اي بين نظرية الاتحاد التي عبر عنها البسطامي ونظرية الحلول التي قال بها الحلاج ونظرية وحدة الوجود التي تغنى بها ابن عربي وذلك من ضمن الطبيعة الأزلية التي تساوي وتوحد بفضل قوة مستترة فيها بين شتى كائناتها فلا تميز بين كبير وصغير ولا بين انسان وحيوان ونبات .

الا ان الحلولية الريحانية تأبى ان تكون سلبية سكونية تولد في الانسان خمولا وتعلمه الهرب من الحياة وتبعاتها كتلك التي يؤمن بها البوذيون والبراهمة مثلاً^٤ . انها حاولية ايجابية فاعلة ملقحة بالرواقية التي تعلم عظم الهمة والصبر على الشدائد والنظر الى الامور السارة والمحنة بعين هادئة وقلب مطمئن^٥ .

اما لغز الوجود وما قبله وبعده فلا يحاول الريحاني ان يتصدى له بشكل جدي بل يحسبه قضية تفوق الادراك الانساني فيسلم بها كما هي .

١ ريحانيات ج ١ ص ٢٠٣ ٢ ج ١ ص ٢٤٢ ٣ ج ١ ص ١١٩

٤ ج ١ ص ٢٨٦ ٥ ج ١ ص ١٨٣

انه يبعد الفكرة الماورائية من حين فلسفته ويصب جهده على الحياة كما هي على علاقتها .

«الجردان في قبوك لا يعرفون هل القبر ثابت الى الابد او الى حين . ولا يعرفون من شيده ولماذا . انما هم يعيشون في زاوية منه او بالحري في ظلماته فيجدون في طلب رزقهم ويدافعون عن انفسهم ويهربون من وجه الحيوانات المتسلطة عليهم فيضاعفون نسلهم ويضاعفون في ذلك عذابك . هذه زبدة حياتهم ومصلها في القبر الذي بنيت له نفسك لا لهم . والبشر في هذه السيارة الصغيرة التي تدعى الارض انما - جل شأنك - كالجردان . فانتا تعمل كأحققر المخلوقات في الظلمات ولا تعلم هل العالم ثابت الى الابد او الى حين . ولا نعرف الغاية التي من اجلها شيد هذا القبر الذي يدعى الارض ولا الغاية من وجودنا فيه فضلا عن قصد البناء العظيم ... هس ! نحن كالجردان ١ » .

«ما لنا وللآخرة الآن . لنصلح بيتنا هنا . او لم يقل الغزالي ان تعمير المنازل من شروط تعمير الآخرة . او شيئاً من هذا . لنصلح اذن بيوتنا لنا هنا . وربك يصلح بيوتاً لنا هناك . وان شاء ان يكون في بعضها

الزبانية ، وفي بعضها الحوريات ، في بعضها انهار من اللبن والعسل ، وفي بعضها نار وكبريت ، فالمشيئة له تعالى . ولكن اباً بشرياً مهما تنهى في الوحشية لا يستطيع ان يكون ارحم من خالقه واشفق . والاب البشري على حد علمي لا يحرق ابناءه مهما تنهوا في الكفر والعصيان والعتو والطغيان ... ولكن شغفي اليوم في الدنيا لا في الآخرة ١ . »

وبما ان محاولات الانسان لاكتشاف هذا اللغز لن تأتي نتيجة غير نتيجة ناطح الصخرة فعليه ان يستثمر وجوده حتي الطفاف ويتناسى الازل والآخرة والغيبات وليترك للعناية الإلهية تدبير الامور .

من خلال هذه الزاوية الفكرية الخاصة يمكننا ان نستشف نظرة الريحاني الى الله والدين والحقيقة والانسان والمجتمع .

اما الله فهو ، في عرفه ، جوهر ازلي سرمدي ينبعث منه جوهر الحياة التي تظهر في الارض انواعاً واشكالاً فتتدرج الى الانسان بما فيه من عقل وضمير وادراك تميزه عن الحيوان . انه عالم بكل شيء ، منزّه عن الخطأ قادر على كل شيء . عنده علم بالغيب ، وبيده زمام الحياة

١ من رسالة له الى الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي ، بتاريخ ٢٠ أيار ١٩١٣ اثبتها محمد الحسين في « المراجعات الريحانية » ص ٦٠

والا كوان^١ . وهو رب جميع الاديان على السواء^٢ .

واما الدين فلازم للانسان وواجب عليه^٣ . حقيقته الكبرى واحدة لا تتغير رغم كثرة العقائد وتضاربها . الحقيقة تجمع والعقائد تفرق . الحقيقة إلهية أزلية والعقائد زمنية زائلة . ولا ضرورة لوسيط بين الانسان وربّه^٤ . والدين بجوهره ، هو الوعي الروحي بين الانسان والملكوت الاعظم مصدر الحب والحنان والعافية والجمال . وما المسيحية والاسلام والبوذية سوى اثواب مختلفة لعقيدة واحدة في الاساس^٥ . فالطقوس والتقاليد التي تبعد الشقة فيما بينها ان هي الا انحرافات ينبغي نبذها^٦ لأنها تورث التعصب آفة الآفات .

من هنا كانت الصلاة أو التأمل الصلة الوحيدة التي تسمو بالنفس الخالدة نحو خالقها . انها تجسد اعجاب الانسان المحدود في ذلك الكيان الإلهي غير المحدود لا وسيلة روحية للتوصل الى شيء مادي وديوي مبتذل^٧ . وهذه الخطوط الكبرى مجسدة في صلاة الامين المعروفة بالنجوى^٨ :

١ وجوه شرقية وغربية ص ٧٣

٢ ريحانيات ج ٣ ص ٣٢ ٣ ج ٢ ص ١٥ ٤ ج ٢ ص ٧٩

٥ ج ٢ ص ١٥ ٦ ج ٢ ص ٧٩ ٧ ج ١ ص ٥٨ ٨ ج ٢ ص ٦١

« ابانا الذي في السموات كن معي في الحياة وفي الممات . ان زدتنى قوة فزدنى يا رب تواضعاً ، وان زدتنى علماً فزدنى حليماً ، لا تمت في فضيلة لتحيي في اخرى ، انت يا رب خلقتني لاعيش حراً كالطير ، خلقتني لأعيش اولا لنفسي وثانياً لأخي في الانسانية ولم تطلب من ابنائك ان يقدموا للعظيم منهم ضحية بشرية . انت منحتنى عقلاً لأفكر فاذا فكرت لا تلعني ، خذنى بحلمك الواسع يا رب واذا صرخت من سويداء الفؤاد طالباً منك الرحمة لعبادك في ارضك فاستجب يا رب طلبي . بدد امامي غيوم الحيرة وارسل علي نور اليقين ، وان كنت قد اخطأت في اسئلتى ، ان كنت قد كفرت في صلاتي فاني قائب اليك ... »

كان يحتقر المظاهر والشكليات ويحارب الطقوس والشعائر والمعتقدات الآلية ويعتبرها باطلة لأن الصلاة الحقّة هي مجرد خير ومحبة وعمل انساني . ومن هنا كانت منه نقمة لا تهاود على « المتظاهرين بالبراءة المصلين بفضل العادة المتعلقين بالقشور دون اللباب » .

اما نقمته على رجال الدين فلم تكن شاملة تبعاً لمبدأ مقرر ، بل نقمة على جماعات منهم وعلى افراد اساؤوا الى الرسالة في تصرفهم واساؤوا الى المسيح . فللفاضلين منهم حرمة عنده ولا اسمى « نعم انا اول من يعترف للاكليروس بالفضل متى كانوا من رجاله . وانا اول من يخضع لسلطتهم

متى استخدمت تلك السلطة لتعزيز العدل وتأييد الحق ورفع المظالم عن
الفقراء والضعفاء وبث روح التهذيب والعلم في الامة . لست ممن يقارعون
الاكليروس لاغراض دنيئة انما هي غيرة وطنية حملتني على مقاومة اولئك
الذين يأكلون خبز النفاق ويزرعون في نفوس الناس بذور الشقاق ، اولئك
العاكفين على جمع المال اللابسين ثوب الكهنوت عن غير اهلية واستحقاق .
اما الانسان ، في نظر الربحاني ، فليس آدمياً ساقطاً ، بل كائناً بدائياً
يحسنه المجتمع دواماً بفضل التقدم فيتجاوز ذاته باستمرار حتى يبلغ
المستوى الاعلى . فالامين وان آمن كروسو بصلاح في الانسان فطري ^١ ،
فانه لا يرى ان المجتمع يفسد الانسان ، بل على العكس يرى انه يطوره
ويرقيه شرط ان يحيا الحياة الحققة الجديرة به ، تلك الحياة « التي تجمع بين
محاسن فلسفة الروحانيين وفلسفة الماديين . هي التي يشارك صاحبها ابيقور
في لذاته وسقراط في ادراكه وافلاطون في روحياته . هي التي تعظم فيها
قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح . هي التي تنتظم اول درجات سلم
الحياة وآخرها من الحيوان .

ولا بد لنا ان نلاحظ هنا اثر نظرية داروين في النشوء والارتقاء

١ قوميات ٢ ص ٢٦ ٢ ربحانيات ١ ص ١٥٥

د اعترف الريحاني نفسه باعتقاده بهذه النظرية ^١ .

«من النبوت ، الى المديّة الصوانية ، الى القوس والنشاب ، الى المنجنيق ، الى الرمح والسيف ، الى المدفع ، الى المدرعة الحربية ، الى الطيارة المدمرة . من الحيلة البسيطة في الاستيلاء تدرج الانسان الى الحيلة الدينية فالحيلة الملكية ، فالحيلة الاستعمارية . من الفكرة التي فيها خير فقط ارتقى الى الفكرة التي فيها خير اسرته ، فخير عشيرته ، فخير امته . ثم الى الفكرة التي فيها خير الانسان على الاطلاق » ^٢ .

والانسان الامثل رجل المستقبل هو ذاك الذي تكتمل فيه جوانب الحياة كلها وتتساوى صحة وفها ورقياً فيتمكن من الجمع بين محاسن الجسد والعقل والروح بل هو ذاك الذي يعيش في الحاضر كما لو كان الحاضر الابدية كلها وهو الذي لا يعول في امره على احد ولا يحترم في البشر إلا العلم والذكاء والصلاح ولا يجابي في سبيل الحق احداً . هو ذاك الذي يعيش لنفسه وللانسانية في وقت واحد ^٣ .

١ ريجانيات ١ ص ١٠٥

٢ التطور والاصلاح ص ٢٧

٣ ريجانيات ١ ص ١٥٦

وكان لا بد لمثل هذا الرجل العظيم مدينة عظمى كجمهورية افلاطون
المثلى ومدينة الفارابي الفاضلة . وقد تصور الريحاني هذه المدينة فردوساً
آمناً يسير فيها الذئب والحمل متحابين متأخين ويرتاح فيها الناس من شرور
المفترين على الله وانبيائه القابضين على صولجان الخرافة المتوجين بتيجات
الجهل والتعصب والطغيان ويسود فيها العلم والحرية والعدل والوفاء
وتتصر فيها قوى الروح والعقل على القوى المادية فيتحول عتاد الحرب
معاول ومناجل وتشاد فيها الصروح والمعاهد والمتاحف ١ .

ان الانسان المتفوق ليجتاح الى مدينة متفوقة ايضاً تكون نموذجاً
مصغراً للمجتمع الديمقراطي الصحيح المرتكز على مبادئ الثورة الفرنسية
التي تشبع منها الامين . والحرية التي يسعى اليها فعليه اكثر منها لفظية
اذ ما ينفع السجين ان يبدل بثوبه المخطط ثوب الرجال الاحرار اذا ظل
راسفاً في سلاسل الحديد مسجوناً في غرفته المظلمة او اذا ظل يشتغل مع
بنيه الصغار تحت الارض محروماً من الهواء النقي والنور وجمال الفضاء .
اي انه لا يؤمن بحرية لانها لها الطاقة الكافية لتحقيقها ، لا تتاح لها
العدالة الاجتماعية في مفهومها العميق .

ان المدينة المثلثي التي يريد لها الريحاني ترتكز على غير الطمع والاستثمار
وعلى غير الشرائع التي « يسنها ارباب المال ويطبقها سحاسة البورصة
واصحاب المعامل وينشرها وزراء الحربية بالمدافع والمدفعات » . وانه
لمتفائل بتحقيقها لأنه مؤمن بالانسان وبالاخاء البشري .

تلك هي اهم نظرات الريحاني الفلسفية وهي كما رأيت ابعده من ان
تؤلف بحثاً منهجياً متسلسل المنطق ، مترابط المضمون . انها الحكمة
الشرقية التي تأبى ان تتمذهب حتى ولو صيغت في قوالب دينامية
مستحدثة ومن بوتقة الغرب .

مراجع هذا الكتاب الخاصة

كتب الريحاني المنشورة وغير المنشورة بالعربية وبالانكليزية

المطالعات الريحانية — محمد حسين آل كاشف الغطاء

الريحاني في مصر — مصطفى الرافعي

الريحاني في العراق — رفائيل بطي

ذكرى الريحاني — مجموعة ما قيل فيه في حفلة سنة ١٩٤٥ التذكارية

امين الريحاني — البوت الريحاني

» — وديع ديب — اطروحة

» — سلسلة المناهل

» — في حقيقته الديمقراطية الاميركية — رثيف خوري

امين الريحاني - سامي الكيالي

» - مارون عبود

» - حارث طه الراوي

» في ادب الرحلة - حكمة صباغ - اطروحة

» في اعلام الفكر العربي - محمد علي موسى

» - سامي الكيالي

» الرجل والاثر - نجاح ابو علي - اطروحة

ذكرى امين الريحاني - الشاعر القروي

فلسفة امين الريحاني - الدكتور كمال الحاج

الحقيقة اللبنانية - عمر فاخوري

الباب المرصود - عمر فاخوري

الغربال - مخايل نعيمه

البيادر - مخايل نعيمه

اطواق الذهب (بالاسبانية) فاركاس فيلا

نحن الشعراء - (رد على انتم الشعراء)

شكل اشياء المستقبل (بالانكليزية) ج . ٠ ولس

مجالات وصحف عربية وانكليزية

المكشوف ، الكشف ، الضاد ، الكلمة ، الهلال ، الاديب ،
المشرق ، الاديب ، الحكمة ، المرأة الجديدة ، منيرفا ، المنار ، الهدى ،
العرفان ، الدهور ، النداء ، نيويورك تيمس ، آسيا ، ترافل ، اتلنتيك
منثلي ، سرفي غرافيك ، هاربر ماغازين ، هارلد تريبون ، الانتوناشيونال
ستوديو ، الكيرنت هستوري ماغازين ، الاميركان ميركوري ، الفوروم ،
الاوبن كورت ، ذي ورلد ، مونتربول هارلد ، نيويورك افننج بوست ،
الصن ، الاوتلوك ، فوغ ، الايغل ، الغلوب ، الايفننج ستار ، والعالم
السوري .

متحف امين الريحاني

عام ١٩٥٤ شاد آل الريحاني في الفريكة متحفاً خاصاً لآثاره، يحتوي
على كتبه ومكتبته وخصوصياته وصور الملوك ورسائلهم وهداياهم وغيرها
من التحف. ثم هناك هدايا رسوم مختلفة موقعة له من الفنانين: اوبرهارد،
اس . ج . وولف ، البرت ستانلي ، ويل سيمونز ، تروي كني ،
يوسف الحويك ، هلن بيل ، ماردو هارتلي ، مصطفى فروخ ، ا . برت ،
مرغريت ث . هويت ، لورفور ، وغيرهم . وهذه الآثار منها المائية
والزيتية ومنها بقلم الرصاص والطبشور الاسود والملون والحبر الصيني
والحفر اليدوي والنحت .

فهرست الكتاب

٩	توطئة
١٣	حياة الريحاني
٧٧	الريحاني والعرب
١٣٢	القضية الفلسطينية
١٤٤	وصية الريحاني
١٤٨	آثار الامين
١٥٠	اسلوب الريحاني
١٧٣	تحليل آثاره
١٧٤	فيلسوف الفريكة
٢٠٦	مراجع البحث

الثلث : ٣٠٠ ق.ل.
٣٥٠ ق.س.